2me Année, No. 56.

Lundi-30-7-1934

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بين السياسة والأدب أيضاً

أشارت « الرسالة » فى عددها الماضى الى كلمة أسف وعتاب كتبتها إحدى الزميلات الدمشقيات لمناسبة وفاة شيخ العروبة المغفور له أحمد زكى باشا ، تشكو فيها من طغيان السياسة على الأدب فى مصر ، وتنعى علينا تقصيرنا فى حق العظماء الراحلين من أدبائنا ومفكرينا ، وتلاحظ أن العلامة الراحل لم يشيع الى مقره الأخير بما يجب لعلمه وأدبه وخدماته للاسلام والعرب ، من التجلة والاهتمام ؛ هذا بينما تغمر ذكرى بعض الراحلين من رجال السياسة بمظاهر الاجلال الشامل ، وتفرد لها فى الصحف عشرات الفصول الرنانة ، ويحتفى بها أيما احتفاء

ونعود فنعقب على ما كتبته الرسالة بأن ملاحظة الزميلة الدمشقية جديرة بكثير من التأمل ، وفيما تنعيه علينا كثير من الحق . فنحن نشعر منذ أعوام طويلة بطغيان الاعتبارات السياسية على كثير من مظاهر حياتنا العامة والخاصة ، ونشعر بما تجنيه هذه الاعتبارات على كرامة التفكير والأدب . وقد ظهر هذا الأثر فى مواطن مازالت تثير فى نفوسنا كثيراً من الأسى والألم . ففى مثل هذا الوقت منذ عامين ، توفى شاعر مصر الكبير المغفور له

حافظ ابراهيم ، فكان حقاً لعظمته وعبقريته أن يكون جنازه حادثاً قوميا عظيما تشترك فيه الأمة كلها شعباً وحكومة ؛ ولكن حافظاً شيع الى قبره فى حشد متواضع من الأصدقاء والمعجبين ، وحالت الاعتبارات السياسية دون أن يسبغ على جنازه أية صفة رسمية أو قومية ، ولم يقم لذكراه أى حفل تأبين لائق . وكان لهذا الاغفال المؤلم صداه يومئذ ، فألفت لجنة من بعض الكبراء والأدباء أصدقاء حافظ لتستدرك هذا التقصير المعيب فى حقه ، ولتقوم بما يجب لتخليد ذكراه ؛ ولكن هذه اللجنة لم توفق للأسف الى القيام فى هذا السبيل بعمل يذكر ؛ ولم تبد دوائر الأدب من جانبها أى اهتمام بحافظ وتراثه ، ولا زالت ذكرى الشاعر العظيم نسياً منسيا

وثمة حادث آخر ظهر فيه طغيان هذا التيار السيء ، هو أنه لما أرادت الحكومة أن تكرم ذكرى أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقى بك فى حفل رسمى دعت اليه ممثلى الأقطار العربية الشقيقة ، لم تفكر فى زميله وقرينه حافظ ؛ ولو أنها أرادت أن تكرم ذكرى الشعر للشعر والأدب للأدب ولم تبد مثل هذه التفرقة بين رجلين اشتركا فى حمل زعامة الشعر العربى زهاء ربع قرن ، وساهما فى مجد مصر الأدبى بقسطين متعادلين لكان عملها جديراً بكل تقدير . ولكن ظروف هذا الحفل كلها كانت تنم عن تغلب هذه الاعتبارات الخاصة فى إقامته وفى تنظيمه ؛ وهى ظروف واعتبارات شعر بها ولاحظها وأسف لها جميع اخواننا مندوبى الأقطار العربية الذين شهدوا هذا الاحتفال

***

وبعد فهل نسى أحد قصة مثَّال مصر العظيم مختار وما جنته الاعتبارات السياسية على شخصه وفنه أثناء حياته ثم بعد وفاته ؟ لقد قضى مختار معذبا منسياً مهضوم الحقوق ، لا تحفل الحكومة بأمره ، ولا تذكر أن له فناً وآثاراً رفعت اسم مصر عالياً ؛ وحذت الهيئات العلمية والأدبية حذو الحكومة فى تناسى مختار وفنه وذكراه .

وهذا الروح المعيب يكاد يتغلغل فى جميع الهيئات المصرية ، رسمية ، وغير رسمية . وفى كل يوم ترتكب فى ظله وتحت تأثيره تصرفات يأباها العلم والأدب ، وتأباها اللياقة والذوق السليم . وكثيراً ما تجنى هذه التصرفات على قضية العلم والأدب ، وحقوق العلماء والأدباء . والأمثلة عديدة معروفة لا يتسع المقام لذكرها ، والتبعة فى ذلك لاتقع على الهيئات الرسمية أو الحزبية وحدها وانما تقع أيضاً على الهيئات العلمية والأدبية نفسها ، وعلى العلماء والأدباء أنفسهم . أما تبعة الهيئات ، والهيئات الرسمية بنوع خاص ، فى انها تمزج بين السياسة والأدب عن عمد وتدبير ، وتخضع الأدب والعلم لمؤثرات السياسة وهواها ؛ هذا مع أن التفكير والأدب تراث قومى عام ، بل هما تراث انسانى يرتفع فوق جميع الاعتبارات والمؤثرات الحزبية والمذهبية . ومن واجب الحكومات والهيئات المستنيرة ان تقدر هذا المبدأ وأن تحترمه دائما . وانما تبعة الهيئات العلمية والأدبية والعلماء والأدباء ، ففى انهم بجمودهم وتقصيرهم يشجعون على تلك التصرفات المغرضة المعيبة ، وأحيانا يساهمون فى ارتكابها متأثرين بنفس تلك الاعتبارات التى يجب عليهم أن يحاربوها بكل قواهم

***

لقد جنت هذه الاعتبارات والمؤثرات على تفكيرنا وأخلاقنا وأصابت حركتنا الأدبية بكثير من ضروب الفساد والشر ، وكانت هيئاتنا الرسمية والعامة دائما فى ذلك قدوة لا تحمد . وما زلنا منذ أعوام نعانى هذا الافساد ونستكين له . أفلم يحن الوقت إذن لكى نحارب هذا التيار الخطر ونعمل على اقناع حكومتنا وهيئاتنا العامة بأن الحركة الأدبية يجب أن تحرر من تلك المؤثرات والاعتبارات الخاصة ، وان التراث الفكرى والأدبى يجب أن ينظر اليه لذاته ، وان من حق المفكرين والأدباء أن ينالوا دائما ، أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، من رعاية حكومتهم وأمتهم ما هو جدير باقدارهم العلمية والأدبية قبل كل شيء ؟ ؟

« ع . ١ »

نجـــار ونجار

للأستاذ أحمد أمين

استأجر دكانا أمام منزلنا الأسطى حسن النجار

وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، مهزول الجسم ، أصفر الوجه ، ينتعل نعلا بالية ، ويلبس ثيابا رثة ، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود ، وأعلاه أحمر ، قد دفعه الى الوراء ليظهر « قصته » من شعره ، فرّعها فروعا ورفعها الى السماء لتناطح السحاب

ينظر اليك بعين منتفخة كأنه قريب العهد — دائماً — بنوم طويل ثقيل ، ويمشى متطرحا كأن فى رأسه — دائماً — فضلة خُمَار ، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبداً ، أقوى شىء فيه لسانه فى السباب ، وصوته فى النزاع

ليس لفتح دكانه أو اغلاقه موعد ولا لعمله وراحته وقت محدد ، يحلو له أحياناً أن يغلقه فى الصباح ويفتحه فى الظهر اذا بدأ الناس يَقيلون ، وأحياناً يسره أن يتركه مغلقاً طول النهار ويفتحه ليلا حيث يبدأ الناس فى النوم ، فيضىء مصباحه ويخرج عدده وأدواته فى الشارع ، ويأخذ فى نجارته ما حلا له ذلك ، فحيناً الى الفجر ، وحينا الى الصباح ، تحاول أن تصده عن ذلك وتنصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر فى خطته ؛ وأحياناً تنقلب دكانه فى الليل حلبة الكميت ، يتنادمون ويتشاربون ، حتى اذا تمشت الخمر فى مفاصلهم ، ودبت فى عظامهم ، ذهبت بهم كل مذهب ، وأخذت منهم كل مأخذ . فتغنوا أحياناً ، فوقع الغناء فى نفوسهم أحسن موقع ، وصاحوا جميعا بصوت واحد : آه ! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم — وأحياناً يعدلون عن الغناء الى تبادل النكات ، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم ، وتخرق آذان جيرانهم

واذا فتح الدكان نهاراً فمعرض غريب ، لا لجودة المصنوعات ولا دقة المعروضات ، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بانجاز أعمالهم ، والشكوى من تأخير طلباتهم ، ثم يصل الأمر فى أغلب الأحيان الى تدخل البوليس ، وأحياناً يكون ما هو أدهى وأمرّ ، اذ يكون قد سلّم اليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لاصلاحه فلم يجد دولابه ولا كرسيه ، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه

وهكذا أصبح شارعنا بحمد الله معرضا فى النهار للسباب والمشاكل والخصومات والبوليس ، ومنتدى جميلا ليلا لأهل السماح الملاح ، الى الصباح

وأخيراً عدت من عملى يوما فرأيت الزحام شديداً على دكان الأسطى حسن ، واذا جلبة وضوضاء ، وصياح يملأ الآذان ؛ واذا المنادى ينادى لبيع عدد النجارة وأدواتها :

منشار فى حالة جيدة !

عشرة قروش — أحد عشر — اثنا عشر

ألاوونا — الادو — ألاتريه

وهكذا حتى تم بيع كل ما فى الدكان وفاء لكرائها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن

وكان شعورى إذ ذاك مزيجا من غبطة وألم ، وحزن وفرح ، فقد آلمتنى خاتمته ، وأفرحنى ما منيت به نفسى بعد ذلك من نوم هادئ سعيد

ودعوت ربى جاهداً ألا يرغب فى الدكان مستأجر بعدُ ، فان كان ولابد فكواء أو عطار ، لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس ، وقصرت شكواى على الله بعد أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف ، وليس له من الزمن ما يلفته لهذه الصغائر

ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتى — وكأن الدكان وقف على سكنى النجارين — فقد سكنها هذه المرة أيضا نجار ، ولكنه من صنف آخر — هو نجار رومى ، لم أشعر بسكناه إلا بعد شهر ، لأنه لم يكن فى عمله شئ غير عادى ، فهو يفتح دكانه وقت العمل ، ويغلقها عند الغروب ، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته فى أصوات البائعين وحركات المارين وأصوات السيارات

دعوته يوما لاصلاح دولاب ، فاذا شاب يشترك مع الأسطى حسن فى سنه ، ويختلف عنه فى كل شىء آخر ، جميل الهندام وان

لم يكن ثمينه ، صفف شعره فى أناقة ولمعان بينما اعتنى الأسطى حسن « بقصته » فقط — عمل عمله فى هدوء واتقان ، وكأنه يحترم نفسه ويحترم عمله ، ويقدر نوع معيشته وما يلزم لها ، فطلب ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضيا

له فى جوارنا ستة أشهر أو تزيد لم أسمع صوته ، ولم أسمع شاكياً من تأخر موعد أو تصرف سيئ . ولم يقلق راحتى كما أقلقها مَن كان قبله ، فهو وإن لم يكن كواء أو عطاراً كالذى رجوت فليس شراً منهما ، وتبين بعدُ أن الأمر ليس نوع الصناعة ، وإنما هو نوع الصانع

***

ونزلت بيتاً فى ضاحية من ضواحى الاسكندرية ، فرأيت (ڤيلا) جميلة على شاطئ البحر ، لا يسكن مثلها — عادة — إلا مَن ورمت جيوبهم ، وانتفخت محافظهم ، راديو ، وبيانو ، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش ؛ ولكن لفت نظرى رجل يلبس قباء ، ويحزم وسطه بحزام ، وعليه جاكتة بسيطة نظيفة ، قد أرخى لحيته ، ودفع طربوشه الى وراء ، يحمل أقمشة على كتفه يكاد ينوء بحملها ، وهو من الصنف اليهودى الذى نراه يجول فى الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و (الزفير) و (الباتستا) . حيرنى أمر هذه (الڤيلا) بجمالها ونظافتها ، وأمر هذا الرجل ، يخرج صباحاً يحمل سلعته على كتفه وقد سمنت ، ويعود مساء وسلعته على كتفه وقد هزلت ؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة فى البيت ، أم قريب فقير لأصحابه عطفوا عليه وآووه واحتملوا منه أن يعيش بينهم وينزل فى مسكنهم ؟ — وفى الحق كان هذا لغزاً شغلنى شرحه ، وأعيانى حله ؛ ثم هدتنى المصادفة البحتة الى اكتشاف الأمر وافتضاح السر : هو ربُّ البيت ! وهو عميد الأسرة ، وليس فيها إلا زوجه وأولاده ، ولكن كلهم يعمل ، وكلهم يكسب : هذه خياطة ، وإحدى بناتها معلمة بيانو ، وهذا ابنه كهربائى ، وهذا الآخر يعمل فى مصلحة التلغراف ، وكل كاسب يعطى ما كسب لأبيه ، ويجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط ، ثم هم جميعاً يعلمون كيف يعيشون ، وكيف ينعمون بالعيش بأقل مصرف ، ويعلمون ما ينفقون وما يدخرون

قارنت بين هذا الرجل ورجل مصرى آخر كان يجول أمام بيتنا أيضاً ، يحمل سلعة كسلعة اليهودى ، وينادى على (حرير المحلة) ، وتصورته وبؤسه ، وتصورت أسرته وبؤسها ، وكيف يتحد العملان ، وتتباين المعيشتان

***

ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين ، والمتعلمين العاطلين ، ونسمع من يرجع العلة الى تفشى الأمية حيناً ، وإلى نوع الدراسة حينا ، والى غير ذلك من أسباب ، وليس فى نظرى سبب أهم من نقص الأخلاق ؛ ولست أعنى أخلاق الكتب ، ولكن أعنى أخلاق العمل ، من معرفة طرق الكسب ، وإجادة العمل ، وحسن العرض ، وعدم الأنفة من مزاولة الحرفة مهما حقرت ، وضبط الدخل والخرج ، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة .

أحمد أمين

القبلة الأولى ..!

هى البريد الذى حمل عنى رسالة حبك ، والاخلاص لك ، فأداها فى أمانة وطهر . .

هى الوحى الذى هبط بالألفة ، وارتفع بالكلفة . .

هى الرسول الذى بلّغك ذوب عاطفتى فى صدق وفطانة . .

هى طابع الوفاء ختمتُ به على ثغرك الزاهى الجميل . .

هى اعتراف بالمحبة أبرقتُ به الى قلبك من أخصر طريق . .

هى تذكار الصفاء سجّلتُه على لطف شفتيك . .

هى برهان الولاء استخلصتُه من سحر عينيك . .

هى التصريح الصامت لما يكنه القلب من لوعة وهيام . .

هى الضغطة الرفيقة التى تذكى فى النفس الحب والغرام . .

هى السلسبيل الصافى الذى يندّى لهاة المدنف الولهان . .

هى النسمة الوادعة اللينة التى تطيف بالنفوس فتنتعش . .

هى الأرج الذاكى الذى تمتلىء به الصدور فتنشرح . .

هى الرحيق المختوم ، والوردة النضرة ، والزهرة المتفتحة . .

هى الجمال كله . يعلن عن نفسه فى خفوت وهمس يزيدانه روعة ورهبة . ويملآنه إجلالا وهيبة . . ؟

كمال الدين حسين

مدرس

أحلام في الشارع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوًّا رَخاميًا في برده وصلابته على جسميهما.

الطفل مُتكَبكِبٌ في ثوبه كأنه جسم قُطِّع ورُكِمت أعضاؤه بعضها على بعض، وسُجِّيتْ بثوب ورُمِيَ الرأس من فوقها فمال على خده.

والفتاة كأنها من الهزال رسم مُخطَّط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه. كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة: أنها صارت قَشًّا...

نائمة في صورة ميِّتة، أو كميتة في صورة نائمة؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها وبقى وجه أخيها في الظل؛ كأن في السماء ملكًا وجَّه المصباح اليها وحدها إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامة همٍّ، وأن في وجهها هي كلَّ همها وهم أخيها.

من أجل أنها أنثى قد خُلقت لتلد، خُلق لها قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها.

من أجل أنها أُعدت للأمومة، تتألم دائمًا في الحياة آلامًا فيها معنى انفجار الدم.

من أجل أنها هي التي تزيد الوجود، يزيد هذا الوجودُ دائمًا في أحزانها.

وإذا كانت بطبيعتها تقاسي الألم لا يُطاق حين تلد فرَحَها، فكيف بها في الحزن...!

***

وكان رأس الطفل الى صدر أخته وقد نام مطمئنًا الى هذا الوجود النسويّ الذي لابدّ منه لكل طفل مثله مادام الطفل إذا خرج من بطن أمه خرج الى الدنيا والى صدرها معًا.

ونامت هي ويدها مرسلة على أخيها كيد الأم على طفلها.

يا إلهي! نامت ويدها مستيقظة!

أهما طفلان؟ أم كلاهما تمثال للانسانية التي شقيت بالسعداء فعوّضها الله من رحمته ألا تجد شقيا مثلها إلا تضاعفت سعادتها به؟ تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الحبيبين في الجسم الآخر فيجعل له وجودًا فوق الدنيا، لا تصل الدنيا اليه بفقرها وغناها، ولا سعادتها وشقائها، لأنه وجود الحب لا وجود العمر؛ وجودٌ سحرى ليس فيه معنى للكلمات فلا فرق بين المال والتراب، والأمير والصعلوك؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم، وإذ المعنى ليس في أشياء المادة ولكن في أشياء الارادة.

وهل تحيا الألفاظ مع الموت، فيكون بعده للمال معنى وللتراب معنى؟... هى كذلك في الحب الذي يفعل شبيهًا بما يفعله الموت في نقله الحياة الى عالم آخر، بَيْدَ أن أحد العالَمين وراء الدنيا، والآخر وراء النفس.

***

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين، ومن شعوره بهذه اليد خفّ ثقل الدنيا على قلبه.

لم يبالِ أن نبذه العالم كله، مادام يجد في أخته عالَم قلبه الصغير.

وكأنه فرخ من فراخ الطير في عُشِّه المعلّق، وقد جمع لحمه الغضّ الأحمر تحت جناح أمه، فأحسّ أهنأ السعادة حين ضيّق في نفسه الكونَ العظيم وجعله وجودًا من الريش.

وكذلك يسعد كل من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها، وفي هذا تفعل الطفولة في نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزاتُ الفلسفة العليا في جملة أعمار الفلاسفة.

وما صنع الذين جُنّوا بالذهب، ولا الذين فُتنوا بالسلطة، ولا الذين هلكوا بالحب، ولا الذين تحطموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثًا أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتعطيهم في الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نوَّلَتْه هذا الطفلَ المسكين النائم في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكبٍ روحه الأرضى.

ألاَ إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشترى الطريقة الهنيئة التي ينبض بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل.

***

وقفت أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل، وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة، فان الله مع المنكسرة قلوبهم، ولعلى أن أتعرض لنفحة من نفحاتها، ولعل ملكًا كريمًا يقول: وهذا بائس آخر: فيرفُّني بجناحه رفَّة ما أحوج نفسى اليها، تجد بها في الأرض لمسة من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر.

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسودَ كالحا، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه الى الصبح، ثم يُفتَح له لينطلق معمِّراً، أىْ مخرِّبا ... أو هو جسم جبارٍ كفر بالله وبالانسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناءً، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره.

ياعجبا! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطَّوَى والهم، ثم لا يكون وسادهما إلا عتبة البنك! تُرَى مَن الذى لعن (البنك) بهذه اللعنة الحية؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أنْ ليس البنك خزائن حديديةً يملؤها الذهب، ولكنه خزائن قلبيةٌ يملؤها الحب..؟

***

وقفت أرى الطفلين رؤية فكرٍ ورؤية شعر معاً، فاذا الفكر والشعر يمتدان بيني وبين أحلامهما، ودخلت فى نفسين مضّهما الهم واشتد عليهما الفقر، وما من شىء فى الحياة إلا كادّهما وعاسرهما؛ ونمت نومتى الشعرية ....

قال الطفل لأخته: هلمّى فلنذهبْ من هنا فنقف على باب (السيما) نتفرج مما بنا، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم.

انظرى هاهم أولاء يُرَى عليهم أثر الغنى، وتُعرَف فيهم روح النعمة؛ وقد شبعوا... إنهم يلبسون لحماً على عظامهم، أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء؛ إنهم أولاد أهليهم، أما نحن فأولاد الأرض؛ هم أطفال، ونحن حطبٌ إنسانىّ يابس؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون، أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت، إلى أن نموت؛ لهم عيش وموت، ولنا الموت مكرراً.

ويلى على ذلك الطفل الأبيض السمين، الحسن البزّة، الأنيق الشارة، ذاك الذى يأكل الحلوى أكلَ لصّ قد سرق طعاماً فأسرع يَحْدِرُ فى جوفه ما سرق؛ هو الغني الذى جعله يبتلع بهذه الشراهة كأنما يشرب ما يأكل، أو له حلق غير الحلوق، ونحن — إذا أكلنا — نغصّ بالخبز لا أُدْمَ معه، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام وأصبناه عفِناً أو فاسداً لا يسوغ فى الحلق، فاذا انخفضنا فليس إلا ما نَتقمّم من قشور الأرض ومن حُتات الخبز كالدواب والكلاب؛ وإن لم نجد ومسّنا العُدْم وقفنا نتحيّن طعام قوم فى دار أو نُزُل فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا، ولا نطمع أن نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردّونا بألمين، ونفقد بالضرب ما كان يمسك رمقنا من الاحتمال والصبر.

هؤلاء الأطفال يتضوّرون شهوة كلما أكلوا ليعودوا فيأكلوا، ونحن نتضوّر جوعاً ولا نأكل، لنعود فنجوع ولا نأكل؛ وهم بين سمع أهليهم وبصرهم؛ ما من أنّةٍ إلا وقعت فى قلب، وما من كلمة إلا وجدت إجابة؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها، أنين ضائع، ودموع غير مرحومة!

آه لو كبرت فصرت رجلاً طويلاً عريضاً! أتدرين ماذا أصنع؟

— ماذا تصنع يا أحمد؟

— إنني أخنق بيدىّ كل هؤلاء الأطفال!

— سَوْأة لك ياأحمد، كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمنا التى ماتت، وله أخت مثلى؛ فما عسى ينزل بى لو ثكلتك إذا خنقك رجل طويل عريض؟

— لا، لا أخنقهم؛ بل سأرضيهم من نفسى؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير... أتدرين ماذا أصنع؟

— ماذا تصنع يا أحمد؟

— أرأيت عربة الاسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل الهرم المحطم الذى أغمى عليه فى الطريق.؟ سمعتهم يقولون: إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة، ولكنه رجل غُفْل لم يتعلم من الحياة مثلنا، ولم تُحكِمْه تجارب الدنيا فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرها لايحييه المدير ولا غير المدير، والذى يقع فى الطريق يجد من الناس من يبتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب إنسانية رحيمة، لابقلب سواق عربة ينتظر المصيبة على أنها رزق وعيش.

إن عربات الاسعاف هذه يجب أن يكون فيها أكل.. ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتُصنع له أم.

كل شىء أراه لا أراه إلا على الغلط، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة أدبارها، وما قطُّ رأيت الأمور فى بلادنا جارية على مجاريها؛ فهؤلاء الحكام لاينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة، لا بقانون الغنى والقسوة، وليتقحّموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس، وخلق ودين ورحمة؛ فانه لاينهزم فى

معركة الحوادث إلا روح النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحماً ودماً هو لحم الحاكم ودمه ؛ فان كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك ، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعاً . وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لا يكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطة درجة فوق الغنى ، ومن نال هذه استشرف لتلك ؛ فاذا جمعوهما كان منها الخلق الظالم الذى يصور لهم الاعتداء قوة وسطوة وعلوّاً ، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذى يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبناً ونذالة . إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للانسانية. ويحرصون على مابه تمامهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانعة والمهاونة ، نازلاً فنازلاً إلى درك بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ماداموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ليجدوا عملاً شريفاً يصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدى آبائهم ، فانه والله لولا العمى الاجتماعى لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطِّل فى أملاك أبيه من القصور والضياع وابن فقير متبطل فى أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع . . .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتعفُّفه وكرمه ، فيتعلم سوادُ الناس منه الأمانة والصدق ، إذ هو لا يكذب ولا يسرق مادام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً فتكون حرفته التجارة ، وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى النـاس أ كثرَ عمرِه مادةَ كذبٍ وإثم ولصوصية .

آه لو صرت مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمد الى الأغنياء فأردهم بالقوة إلى الانسانية ، وأحملهم عليها حمـلاً ، وأصلح فيهم صفاتها التى أفسدها الترف واللين والنعمة ، ثم أصلح ما أخلَّ به الفقر من صفات الانسانية بالفقراء ، وأحملهم على ذلك حملاً ، فيستوى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون . ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الانسانية فى أفرادها ، فتقطَّع مابينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمهم أهل وطنهم

ومتى أُحكمت الصفات الانسانية فى الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً — صار قانون كل فرد كلمتين ، لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حَقِّى) ونحن نريد أن يكون (حَقِّى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانون الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير . . . لست المدير بما فى نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده . . . كلا ، أنا عمل اجتماعى منظم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلقٌ ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياة الأمّ مع الحياة الأطفال الاُخوة فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ، أنا الرحمة ، عندى الجنة ولكن عندى جهنم أيضاً مادام فى الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ، لكني الأصلاح .

هأنذا قد صرت مديراً أعسّ فى الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهم .

من أرى ؟ هذا طفل وأخته نائمان على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما المرقعة ، فى دنيا تمزقت عليهما ، قم يابنىّ ، لا تُرَعْ إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول : انك مانمت من الجوع ، ولكن مضمضتّ عينك بشعاع النوم ؟

ياولدىّ المسكينين بأى ذنب من ذنوبكما دقتكما الأيام دقاً وطحنتكما طحنا ، وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا وبنت فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنقان فيه ، ماالذى ضرّ الوطن منكما فتموتا ، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا؟

إن كنت يابنى لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلوم إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيف إلى أن آخذ لك الحق .

إلىّ بابن فلان باشا وبنت فلان باشا .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

أدب الرواد المسلمين

فن فى الأدب العربى يحتفظ بقيمته وجدته

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فن من فنون الأدب العربى لم تذهب الأيام بجدته ؛ ولا يزال تراثه رغم كر الزمن يحتفظ بقيمته الفنية فضلاً عن قيمته التاريخية ؛ ذلك هو فن السياحة والمشاهدة . ففى الأدب الغربى ، القديم والحديث ، تتبوأ كتب السياحة والمشاهدة مكانة رفيعة ، سواء أكانت لمكتشف يرود مجاهل القارات ثم يسجل اكتشافاته ، أو لكاتب يجوب البلاد بقصد الدرس والمشاهدة ويدون ملاحظاته ومشاعره . وقد كانت كتب السياحة قبل قرنين أو ثلاثة تعتبر دائماً بالنسبة للمجتمعات التى كتبت لها كتب استكشاف تلقى أضواء جديدة على أحوال المجتمعات التى كتبت عنها ؛ فلما تقدمت المواصلات وتقاربت الشعوب ، وكثر تعارفها ، وتوثقت بينها الصلات العلمية والأدبية ، لم يبق للسائح المتجول ما يكتشفه من أحوال الشعوب المتمدنة أو التى تأخذ بقسط من الحضارة ، إلا ما يمليه عليه الدرس الخاص لأحوال هذه الشعوب ، وأصبحت كتب الاستكشاف وقفاً على رواد المجاهل والعلماء الذين يجوبون معهم مجاهل البحار أو اليابسة ليكشفوا جديداً من الآثار أو الأنواع . وكتب الفريق الأول يغلب عليها الطابع الأدبى ، وأما كتب الرواد الفنيين فيغلب عليها الطابع العلمى .

وقد عرف الأدب العربى فن السياحة والمشاهدة فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثالث نرى الجغرافيين العرب يطوفون أرجاء العالم المعروف يومئذ للوقوف على أحوال البلدان والأقاليم المختلفة وخواصها ويدونون مشاهداتهم فى كتب لا زالت حجة عصرها . ومن أعظم هؤلاء الجغرافيين الرحل ، اليعقوبى الذى طاف العالم الأسلامى من السند الى الأندلس وتجول فى جميع بلاد فارس والجزيرة ومصر والمغرب والأندلس فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، ووضع كتابه الجامع « البلدان » ، والمسعودى المؤرخ والجغرافى الذى طاف أنحاء العالم الأسلامى شرقاً حتى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، واخترق المحيط الهندى حتى شواطئ افريقية الشرقية وجزيرة مدغشقر ، وشهد عجائب هذه الآفاق ، ودونها فى كتبه ولا سيما مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، وذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى . بيد أننا لا نريد أن نتحدث هنا عن هؤلاء العلماء الجغرافيين ، وإنما نتحدث بالأخص عن طائفة من الرحل والمكتشفين المسلمين الذين تصور آثارهم أحوال البلاد والمجتمعات التى شهدوها ، وتعتبر من الوجهة الفنية آثاراً وصفية اجتماعية قبل أن تعتبر آثاراً جغرافيـة . ولدينا فى الواقع ثبت حافل من أولئك الرواد المشغوفين بالسياحة ودراسة أحوال الأمم ، ولدينا كثير من آثارهم التى ما زالت تعتبر رغم قدمها نماذج حسنة لهذا النوع من الأدب المفيد الشائق معاً . وما نذكره منهم ومن آثارهم فى هذا الفصل ، نذكره على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر ؛ وإنما نلاحظ أن الذين عرفوا منهم وعرفت آثارهم هم أقلية صغيرة بالنسبة الى أولئك الذين لم تصل الينا آثارهم أو التى انتهت آثارهم إلينا ، ولكنها ما زالت مخطوطات منسية فى ظلمات المكاتب العامة والخاصة .

ومن أقدم أولئك الرواد الوصفيين الذين انتهت آثارهم إلينا

ياهذا عليك أخاك أحمد ولتكن به حَفِيًّا ، وياهذه ، عليك أختك الآنسة أمينة . . . .

أتأبيان ، أنَفْرَةً من الانسانية ، وتمرداً على الفضيلة ، أحقاً بلا واجب ، دائماً قانون الكلمة الواحدة ! ؟ خلقتما أبيضين سخرية من القدر وأنتما فى النفس من أحبوشة الزنج ومناكيد العبيد .

ورفع أحمد يده . . . .

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، واليه حراسة البنك قد توسنهما (١) ودخلته الريبة ، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة وقبل أن تنزل يد سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطى قد ركله برجله فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عَدْوَ الخيل من ألهوبِ السوط .

. . . .

وتمجدت الفضيلة كعادتها . . ! . . أن مسكيناً حلم بها . .

مصطفى صادق الرافعى

---

(١) توسنهما أتاهما نائمين

أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الذى أنفق نحو ثلاثين عاماً فى الطواف بالأمم الاسلامية من بغداد إلى الأندلس ، يدرس أحوالها وخواصها وأحوال شعوبها ومجتمعاتها ، وذلك فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) . وقد دون ابن حوقل رحلته ومشاهداته فى كتاب أسماه «المسالك والممالك» ، وهو أثر يجمع بين الناحية الجغرافية والناحية الوصفية . بيد أنه يعنى بالمشاهدات الوصفية عناية خاصة ، وفيه يدون ابن حوقل خلال أخبار رحلته أحوال الأمم التى مر بها وما شاهده فيها من المناظر والمعاهد والآثار والخواص التى تستحق الذكر . وقد مر ابن حوقل أثناء رحلته بمصر ، فى أواخر الدولة الاخشيدية ، وخصص لمشاهداته فيها فصلاً طويلاً يصف فيه مصر الفسطاط ومعاهدها والنيل ومجراه ، وكثيراً من أحوال المجتمع المصرى يومئذ[1] . وأسلوبه يجمع بين الطابعين العلمى والأدبى . ولدينا فى القرن السادس رحالتان شهيران أحدهما يجوب العالم المعروف يومئذ من المشرق الى المغرب ، والآخر يجوبه من المغرب إلى المشرق ، والأول هو أبو الحسن على بن أبى بكر المعروف بالسائح الهروى ، نسبة الى هراة بلد أسرته . وقد ولع أبو الحسن بالأسفار منذ حداثته ، وخرج من الموصل مسقط رأسه يجوب أنحاء العالم لغير قصد سوى التفرج والاستكشاف ، وذلك نحو سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) ، وأنفق زهاء ربع قرن فى رحلته ، فطاف أرجاء الشأم وفلسطين ومصر ، وقبرص وغرب الأناضول وزار قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، واخترق البحر الأبيض وتجول فى جزائره حتى صقلية ؛ ولم يترك ، على قول ابن خلكان « براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل الى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » . واشتهر ذلك فى الآفاق كلها ، وهو الوحيد الذى تلقبه الرواية الاسلامية « بالسائح » وأسره الفرنج والقرصان مراراً ، وضاعت كتبه ومذكراته ، كما يخبرنا بذلك فى كتابه الذى انتهى إلينا ، وهو سفر صغير عنوانه « الأشارات إلى معرفة الزيارات »[2] وفيه يقص باختصار سير رحلته ، وما شاهده من الأماكن والمعاهد ، دون وصف ولا إسهاب . وفى أواخر القرن السادس استقر أبو الحسن فى حلب بعد طول التجوال ، ونال حظوة لدى أميرها وتوفى سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) ودفن بتربة أعدها لنفسه ، وكتب عليها حسب وصيته ومن انشائه تلك الكلمات المؤثرة : «هذه تربة العبد الغريب الوحيد على بن أبى بكر الهروى ، عاش غريباً ، ومات وحيداً ، لا صديقاً يرثيه ، ولا خليلاً يبكيه ، ولا أهل يزورونه ، ولا اخوان يقصدونه ، ولا ولد يطلبه ، ولا زوجة تندبه ؛ آنس الله وحدته ، ورحم غربته»

وأما الثانى فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الأندلسى . رحل من الأندلس شرقاً الى افريقية ومصر والشأم والحجاز . وكان رحالة بطبيعته قوى الملاحظة والوصف . رحل من غرناطة الى المشرق ثلاث مرات ، الأولى سنة ٥٧٨ هـ والثانية سنة ٥٨٥ هـ ، والثالثة فى أواخر القرن السادس ، وقطع البحر الأبيض مراراً ، وطاف بمعظم جزائره وثغوره الجنوبية والشرقية ، وتجول فى بلاد مصر والشأم والحجاز ، وقاسى فى أثناء تجواله كثيراً من الشدائد ، وأشرف مراراً على الهلاك فى البحر ، واستقر أخيراً بالاسكندرية وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ودون أخبار رحلاته فى سفر كبير ممتع يسميه « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » . وفيه يدون مشاهداته فى الأمم والبلاد التى زارها ؛ ويقص حوادث أسفاره مفصلة بالتواريخ فى نوع من « المذكرات » ؛ وهو أثر شائق الأسلوب والوصف يعتبر نموذجاً بديعاً لأدب الرواد .

ونستطيع أن نذكر من الرواد المسلمين فى هذا العصر أيضاً ، عبد اللطيف البغدادى الطبيب العلامة الذى وفد على مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وطاف بعد ذلك فلسطين والشأم وبلاد الروم الأناضول يدرس أحوالها ومجتمعاتها . وقد دون عبد اللطيف مشاهداته فى مصر فى كتاب كبير لم يصل إلينا ، ولكن وصلت الينا منه عدة فصول اختارها عبد اللطيف وسماها كتاب « الافادة والاعتبار » وهى فصول قوية بديعة عن أحوال مصر وخواصها الطبيعية والاجتماعية ، يغلب عليها الأسلوب العلمى الذى يمتاز به مؤلفها

* * *

على أن أعظم الرواد المسلمين على الأطلاق هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الطنجى الشهير بابن بطوطة . ولم يكن ابن بطوطة

(١) راجع هذا الفصل فى كتاب « المسالك والممالك » (وهو ضمن المكتبة الجغرافية التى أصدرها المستشرق دى جويه)

(٢) ومنه نسخة خطية فى دار الكتب رقم (٣ م جغرافيا)

رحالة عظيما فقط يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ ، بل كان أيضاً مكتشفاً عظيما يقصد الى مجاهل البر والبحر . وكتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وأنفس أثر عربى فى هذا النوع من الأدب . وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥م) يجوب أقطار العالم ، واخترق بلاد المغرب ومصر والشأم وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية ، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية ؛ واخترق فى عوده قلب أفريقية من السودان الى بلاد النيجر ؛ ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التى لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة ؛ ووصل الى أعالى نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل اليها الرواد الأوربيون ويكتشفها الرحالة الانجليزى منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون . وسلخ فى رحلاته نحو ربع قرن ؛ وترك لنا عن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته ذلك الأثر الذى يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف .

وقد لبث أدب الرواد متصلاً فى العربية حتى العصر الحديث ؛ فنجد المقرى مؤرخ الأندلس — مثلاً — يصف لنا فى فاتحة «نفح الطيب» رحلته البحرية من المغرب الى المشرق فى أسلوب رائع ؛ ونجد العلامة الصوفى عبد الغنى النابلسى يجوب بلاد الشأم ومصر والحجاز ، وذلك سنة ١١٠٥هـ (١٦٩٤م) ، ويترك لنا عن أسفاره ومشاهداته أثراً نفيساً هو كتاب «الحقيقة والمجاز» الذى تحتفظ دار الكتب بنسخة خطية منه

***

ومما تقدم نرى أن أدب السياحة قد بدأ فى العربية فى عصر مبكر ، واستمر على كر العصور . وكثيراً ما قيل إن تراث الأدب العربى أضحى قديماً لا يساير العصر ، وأن فنونه قد عفت ، وأنه ليس فى تعداد فنونه ومناحيه كالأدب الغربى . ولكنا نستطيع أن نقول هنا على الأقل ، إن الأدب العربى قد سبق الأدب الغربى فى فن السياحة والمشاهدة بعصور طويلة ؛ وهذا مترتب بالطبع على أن الرواد المسلمين كانوا أسبق من الرواد الغربيين الى التجوال فى أنحاء العالم المعروف يومئذ ، والى ارتياد كثير من الأنحاء المجهولة . والواقع أن أول رحالة غربى كبير ارتاد انحاء المشرق وآسيا هو الرحالة الايطالى مركو بولو ؛ وكانت رحلته الى المشرق فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ؛ هذا بينما يرجع نشاط الرواد المسلمين الى القرنين الثانى والثالث من الهجرة (القرنين الثامن والتاسع من الميلاد) . وأقدم أثر غربى قيم فى السياحة هو أثر مركو بولو الذى يصف فيه أحوال الأقطار الأسيوية ولاسيما الشرق الأقصى . وقد كان أول أثر استطاع الغرب أن يقف فيه على عظمة الشرق يومئذ وبذخه وبهائه وروعة حضارته . ولكن الأمم الاسلامية كانت تعرف أقصى الأمم الشرقية ومعظم الأمم الغربية على يد جغرافييها وروادها قبل ذلك بقرون .

على أنه مما يؤسف له أن أدب السياحة فى العربية قد انحط فى العصر الأخير ، كما انحط كثير من فنونها ، وأضحى نوعاً من المشاهدات الطائرة تكرر فى كل فرصة وفى كل أثر جديد ، وتكتب بالأسلوب الصحفى الركيك ، وتقف عند الأخبار والمشاهدات السطحية ، كوصف السفينة والبحر والشوارع والفنادق والملاهى ، بأساليب وعبارات مملة ؛ وقلما يعنى السائح المتفرج بالمشاهدات والدراسات العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، ومن الأسف أننا لا نستطيع أن نجد بين كتب السياحة التى أخرجت فى العصر الأخير كثيراً من الآثار التى تمتاز بقيمتها الأدبية والفنية (١) .

محمد عبد الله عنان
المحامى

---

(١) يسرنى أن أنوه بهذه المناسبة بالكتب القيمة التى يخرجها صديقنا الرحالة محمد ثابت عن رحلاته ، وقد أخرج منها إلى اليوم ثلاثة تمتاز بدقة دراساتها ومشاهداتها الجغرافية والاجتماعية .

حول اقتراح

نقابة للأدباء الشبان

بقلم حنفى غالى

قرأت المقال الشيق الممتع الذى نشرته مجلة الرسالة الغراء لذلك الأديب الكبير مقترحاً فيه تأليف نقابة للأدباء الشبان، تجمع شملهم، وتوحد كلمتهم، ويكون لهم منها قوة ترد عنهم هجمات المعتدين، ودرع يقيهم طعنات الطاعنين؛ فراقنى منه ميل خالص للعدل، ورغبة صادقة فى الانصاف، فأحببت أن أقول فى هذا الموضوع كلمة صريحة لوجه الحق، غير متأثر من جانبى الشبان أو الشيوخ برغبة أو رهبة.

وكم كنت أود أن يتجه اقتراح الأديب اتجاهاً غير اتجاهه، ويرمى الى غاية غير غايته، فيدعو الى تكوين جماعات من الشباب تلتف كل منها حول شيخ أو أكثر من شيوخ الأدب، تفيده وتستفيد منه؛ تفيده باعلاء ذكره وإظهار فضله وإعانته فى عمله، وتستفيد منه بالاستماع لنصائحه والتشرب بروحه والتأدب بأدبه؛ ويكون هذا خيراً من تأليف نقابة تغرى بالمصارعة وتغرى بالمناجزة، وأليق برجال يجتمعون قاطبة حول عرش الفن، ويتعبدون له ويتقدمون بقرابينهم اليه، لا فارق فيهم بين شاب وشيخ، وخامل ونابه، ومغمور ومشهور. نعم كنت أصبو الى تلك الأمنية وأتحرّق شوقاً اليها؛ ولكننى الآن قد انصرفت عنها وزهدت فيها، فقد هممت بالعمل على تحقيقها وإنفاذها فى العام الماضى إجابة لرغبة شيخ من شيوخ الأدب محبب إلىّ، عزيز علىّ، فوجدت السبيل الى ذلك شائكاً وعراً بسبب المعركة التى احتدمت حينئذ بين الأدباء الشبان والشيوخ والتى لا زال جرحاها وقتلاها يسقطون حتى اليوم، فرغبت فى الوقوف على أسبابها، وتعرّف من أوقد شعلتها الأولى، أهم الشيوخ أم الشبان؟ واستطعت باتصالى بهؤلاء وأولئك أن أستشف روح كل منهما، وأستكنه خبيئة نفسه؛ فعلمت علم اليقين أن التبعة فى ذلك إنما يقع أكثرها على الشيوخ، لأننى وجدت فى أدباء الشباب كرماً وصفحاً، وإن كان فيهم غرور. أما الشيوخ فلست أغالى إذا وصفتهم بعنت الحزازة وصلف الأستاذية — كما يقول الأستاذ صاحب الرسالة — بل بالخروج عن طور الحكمة والرزانة المعروفة عنهم، أو المفروضة فيهم على الأقل؛ ولله ما أعجب تقلبات الأيام! فقد كان هؤلاء الشيوخ بعينهم ينعون على رجال المدرسة القديمة استبدادهم وتخطيهم الرقاب بشهرتهم، واستغناءهم عن الاخلاص والصدق، ويفاخرون بأن مذهبهم الجديد إنما يقوم على أساس من الحجج الناصعة، والبراهين الدامغة؛ ولا يبغى سوى الحرية والحق، ومازالوا يعملون المعاول فى المذهب القديم حتى أحالوه صعيداً جرزاً، ولكن ما كادوا ينتصرون ويفرح الشباب بهذا الانتصار، وتفيض نفوسهم غبطة به وابتهاجاً له، حتى تبدلت نفوسهم، وتجهمت قلوبهم، وأصبحوا للشباب ألد الأعداء، بعد أن كانوا أخلص الأصدقاء، وأخذوا يضعون اللجم فى الأفواه والأصفاد حول الأعضاد، والعقبات فى سبيل النفوس الناشئة السائرة على الدرب، وبذلك مثل شيوخ الأدب فى مصر وفى القرن العشرين المأساة المبكية المضحكة التى مثلها من قبلهم رجال الثورة الفرنسية حين ثاروا على استبداد البوربون، فقوضوا صرحه، ثم أقاموا مكانه استبداد نابليون، أليس كذلك؟!

رحم الله المدرسة القديمة وطيب ثرى رجالها الأبرار! لقد قال الأستاذ الدكتور طه حسين عن أحدهم وهو المغفور له حفني بك ناصف «كنا نستعينه على أن نكون خيراً منه، وكان يعيننا على ذلك راضياً به مبتسماً له راغباً فيه». فأين هذه العلاقة الأبوية العطوفة من علاقة الأذلال والاستعباد التى يريد شيوخ الأدب أن تكون بينهم وبين الشباب؟ هم يخيرون أدباء الشباب بين أمرين أحلاهما مر، أما أن يندمجوا فى أشخاصهم ويفنوا فيهم ويسبحوا لهم بكرة وأصيلا وغدوا ورواحا، وإلا فالويل والثبور لهم أن حدثتهم أنفسهم بابداء رأى حر فى كتاب شيخ أو قصيدة، أو يتربصون بهم حتى أذا وقعوا فى أيديهم فرائس أثخنوهم طعناً فما يبقون فيهم ذماء من حياة؛ فالموقف الأول مفسد للنفوس مميت للضمائر، والموقف الثانى مثبط للهمم مضعف للعزائم، وكلاهما لا يرضى الكرامة ولا العدل، وما كان للشباب وهم الذين طالماً غسلوا بدمائهم الزكية طريق الحرية أن يقبلوا الابتعاد فى الأدب بعد أن أبوه فى السياسة

ولست أرى مبرراً لهذا الموقف الشاذ الغريب من الشيوخ

فالمـألوف أن الأدباء يختلفون فى الرأى ويختصمون فى الفن فماذا يخيفهم من نقد الشباب لآثارهم؟ إلا أن الأمر لا يخلو من أحد اثنين: أما أن انتاج الشيخ الفنى قوى لا مغمز فيه فلا يعقل أن النقد يغض من قدره وينقص من قيمته، أو انه ضعيف فيكون من حق الفن ألا يدخل فى حرمه المقدس. أما دعوى الشيوخ بأنهم وحدهم حراس الفن وامناء هيكله فهى دعوى مرفوضة شكلاً وموضوعاً، هى مرفوضة شكلاً لسخافتها الظاهرة وبعدها عن الجد بعد مابين الأرض والسماء، وهى مرفوضة موضوعا لأن وسائل النقد هى الذوق والاطلاع وهما متوفران لـكثير من أدباء الشباب

والحق أن من شيوخ الأدب من هو مقدور فوق قدره، ولعل هذا سر فزعه من النقد وجزعه من كل يد تمتد إلى آثاره ولو كانت عاجزة ضعيفة

على أنني لست أخلى أدباء الشباب من كل تبعة، ففيهم غرور يحمل بعضهم على النزول إلى ميادين لم يعدوا لها العدة ولم يتخذوا الأهبة، ولـكن أى ضير على الشيوخ لو قابلوا نزوات الشباب بابتسام الأب البار الحنون الذى يغفر ويتجاوز عن كثير؟

ولقد نشأ عن هذا الموقف الشاذ بين الشيوخ والشبان أن غشى الحياة الأدبية فى مصر غشاء من الحقد والرياء فى النقد فلا يكاد يظهر مؤلف أدبى حتى يرفعه الأنصار الى السماء، ويهبط به الخصوم الى الغبراء بغير حق، فانظر ماذا فعل شيوخ الأدب بديوانى الشاعرين المهندس وناجى؟ أو ليس فيهما ما يستحق الأعجاب والتقدير؟ بلى، وإنى لأترك الـكلام هنا للأستاذ المنصف صاحب الرسالة إذ قال: إن ما فيهما من مساوىء هو من ضئال العيوب التى تختفى فى بهر الجمال وروعة الصنعة، فالحكم فى حياتنا الأدبية الآن للهوى والغرض لا للعقل والعدل، فما علاج هذه الحالة. إننى وإن كنت أرى فى تأليف نقابة لأدباء الشباب ما يغرى بالصراع والنضال، ولـكننى أؤيد الاقتراح كل التأييد على أن يكون الشباب عند حسن الظن بهم تسامحاً ونبلا، فلا يكونوا البادئين بصبغ العيون بلون الدماء — كما يقول الأديب الـكبير — فاذا بغى من الشيوخ باغ أو عدا عاد فليقف منه الشباب موقف المدافع فى سبيل أعلاء كلمة الحق، واقرار العـدل فى نصابه، ورد الأمور الى مجراها الطبيعى.

فالنقابة بما تبثه من روح التعاون بين الشباب، وبما تخلقه من قوة الاتحاد فى الغاية والغرض، ستزيل كل العقبات المصطنعة من طريقهم، وتبدد هذه السحب التى تراكمت فى سماء حياتنا الأدبية، وحبذا لو امتد نشاطها فشمل جميع الأقطار العربية، وضمت بين أعضائهـا أدباءها الشبان، فيكونون رسل محبة وسفراء خير

ولـكن النقابة لن تـكون جديرة بالتقدير والاحترام، إلا إذا كان وجه الفن قبلتها وغايتها، والاخلاص له قائدها ورائدها، فلا يتقارض أعضاؤها المديح والثناء الزائف، بل يتبادلون النصح والارشاد الصادق، فاذا ما سارت سفينة الشباب فى هذا السبيل القويم والصراط المستقيم، فلا شك أنهـا بالغة غايتها منتهية الى بر السلامة محوطة برعاية الله مكلوءة بعنايته

قد أمن الله مجراها وأبدلها بحسن عاقبة من سوء منقلب

حنفى غالى

حقـــائق

١ — الاثينيون القدامى والفرنسيون الحديثون يبذون غيرهم من الأمم فى شغفهم بجمال الحياة ومباهجها. كما يبذونهم كذلك فى رقة الأخلاق وظرف الشمائل.

٢ — يقول المثل «لا ألفة بين اللصوص» ومعنى ذلك أن الشر يهدم الصداقة

٣ — أن دراسـة الشعر والفصاحة والموسيقى والتصور وغير ذلك من الفنون الجميلة تبث فى الناس روح الدماثة والرقة والايناس.

٤ — إن لتداعى الأفكار تأثيراً عظيما جداً على العقـل والأخلاق، فنرى أن أشغال الذوق توجه العقل إلى مواطن الجمال والسمو. وترد عنه أسباب الضعة والفساد، وذلك لأنها تبعث على حب الأولى. والنفور من الثانية بقوة التداعى والترابط.

٥ — كما أن الموسيقى تطرب السمع. والألوان البهيجة تفتن العين. كذلك بدائع الذوق تهذب العقل. ولذلك نرى أن الموسيقى يؤلمه اختلال الألحان. والفنان يزعجه اضطراب الألوان، والذوق الرقيق تؤذيه شراسة الأخلاق وغلظة الطباع

ترجمة عامر عبد الوهاب عامر

الموت والخلود*

للأستاذ زكى نجيب محمود

أما أحدهما فكان يحب الحياة ويخشى الموت ، وأما الآخر ففيلسوف يستصغر شأنها وينفذ ببصره وراء ظواهرها الزائلة إلى حيث الحقيقة الخالدة . جمعت بينهما الأيام على مائدة واحدة فدار بينهما الحديث وتشعبت أطرافه ، وما لبث الحوار بينهما طويلاً حتى مس موضع التناقض بينهما . . .

تراسيماكوس — لله ما أعجب الموت ! لا يكاد يمس الحى بأطرافه الباردة ، حتى تنقلب تلك القوة المفكرة المدبرة الفعالة إلى جمود الصخر ، يلقى بها فى جوف القبر الصامت ، وكأنها بعض تربته ، أفتستطيع ياصديقى أن تحدثنى حديثاً جلياً واضحاً لا يغمض ولا يلتوى عن قصة هذا الموت العجيب ؟ ماذا عساى أن أكون بعد هذا القضاء المحتوم ؟

فيلاليثس — ستكون كل شىء ، ولن تكون شيئاً

تراسيماكوس — لم أكن والله أتوقع منك حين طرحت السؤال ، إلا عبارة كهذه مبهمة مرنة ، أسرفت فى المرونة والابهام حتى وسعت كل معنى ، فلم أظفر مما أريد بشىء ، وماذا عسى أن أفيد من جواب يتنافر الصدر فيه مع العجز ، ويتناقض شطره الأول مع شطره الثانى ، فيزيد المشكلة تعقيداً على تعقيد ولا يوضح منها شيئاً ؟ ولكنها الفلسفة العقيمة تأبى إلا أن تعلو بنفسها فوق مستوى الأفهام فتربك العبارة إرباكاً وتغلقها إغلاقاً ، كأنما أريد لها أن تقتصر على قائليها ، وكان خليقاً بها إن أرادت أن تمكن لنفسها من العقول ، أن تلتمس سبيلاً طيعاً ذلولا ، لا وعراً ولا شائكا ، فيرده الرائدون جميعاً .

فيلاليثس — عفواً صديقى ، فما قصدت إلى التناقض عمداً بل اضطررت اليه اضطراراً ، فهذه اللغة التى تواضع الناس على اصطناعها فى التفاهم ، لم تنشأ أول أمرها إلا لكى تكون أداة للتعبير عما يقع تحت الحس من أشياء ، فلما درج الانسان صاعداً فى سلم الرقى ، وبدأت تدور فى رأسه خلجات من الفكر المجرد ثم أراد أن يبرزها فى ثوب من اللفظ ، لم تسعفه إلا هذه اللغة ، التى انما خلقت للمحسوسات ، والتزم أن يجرى فى قوالبها المحدودة تلك الآراء المطلقة التى لا تعرف الحدود ، فلم يكن بد من هذا التناقض والاضطراب ، فأنا ان فكرت فى مصيرك بعد الموت ، فلست أعنى بجسدك وما يطرأ عليه ، بل يسبح الفكر فى حقيقتك التى تكمن وراء هذا الستار من اللحم والعظم فى جوهرك مجرداً عن قوالب المادة ، وما أضيق اللغة عن هذا النطاق الفسيح !

تراسيماكوس — ويحك ! أو تريد أن تجعل منى رجلين ، فرجل من مادة فى إهاب من الجلد ، ورجل مجرد خبىء وراء الأستار تراه أنت من دون صاحبه ؟

فيلاليثس — وأى غرابة فيما أزعم ياصديقى ؟ أفتظن أن هذه الأجسام والأجساد التى تنبث فى أنحاء الكون ، والتى تدركها بوساطة الحواس ، هى كل شىء ؟ اللهم إن صح هذا لكان الانسان كتلة من اللحم والشحم والعظام ، وقل على أفكاره ومشاعره وشتى مظاهر حيويته العفاء ، لأنها لا تسلك اليك سبيلاً من عين أو أنف أو أذن ! ! لا ، لكل شىء حقيقة كامنة وراء ظاهره ، ما فى ذلك شك ولا ريب ، فان أدركك الموت يا أخى أفنى منك هذا الفرد الذى يحاورنى الآن ، هذا الشخص المعين الذى أراه وأسمعه ، ماذا أقول ؟ هذا التراسيماكوس ، فلن يكون بعد الموت شيئاً مذكوراً ، ستنحل مادته وستسلك ذراتها سبلاً شتى ، فطائفة الى شجرة تدخل فى تركيبها ، وطائفة الى حيوان ، وثالثة الى صخرة تلقى فى طاق الكوخ لتصد عن ساكنيه الهواء كما يقول شاكسبير ، ولكن ليست هذه الشخصية إلا ظهارة فانية مع الموت ، ولها بطانة باقية الى الأبد ، ليست إلا قالباً صيغت فيه حقيقتك الخالدة . فالفرد منك ظاهرة مادية عارضة محصورة فى أطواق الزمان والمكان ، فلها بدء وخاتمة ، وهى تشغل حيزاً من الفراغ ، فأما سرك وجوهرك ، أما الحقيقة التى اندست فى مادتك فلا تعرف زماناً ولا مكاناً ، فهى فى الكون منذ الأزل ، أرادت أن تثبت وجود نفسها ، فتجسدت فى الكائنات التى ترى ، فهى لا تختلف فى شخصك عنها فى شخصى ، أو فى شخص هذا

---

* يوضح هذا الحوار فلسفة شوبنهور فى إرادة الحياة ، وخلاصتها أن الحياة تستعين بالأفراد على بقائها ، فهى لا تعنى بالفرد مادامت تحقق البقاء فى الأفراد الآخرين ، وقد أخذنا مادة هذا الحوار وأشخاصه من فصل كتبه شوبنهور .

الطائر الذى تراه يخفق بين أطباق الهواء . . . فان أدركتك المنية سيفنى منك الفرد ، وستخلد الحقيقة ممثلة فى سائر الأحياء ، لعلك الآن قد آمنت بما زعمته لك من أنك لن تكون بعد الموت شيئاً ، وستكون كل شىء ؟

تراسيما كوس — ولكن خلودى فى أشخاص آخرين لا يساوى عندى جناح بعوضة ، مادمت لن أحيا بشخصى هذا ، فان كان تراسيما كوس الذى يطارحك الحديث الآن ، سيفنيه الموت ، فسحقاً للحقيقة ، إذ ليس لى فى خلودها غناء .

فيلاليثس — مهلاً ! هب أنك خيرت فى أن تعيش بعد الموت بشخصيتك التى تتشبث بها على شرط واحد ، وهو أن تسلب منك تلك الشخصية شهوراً ثلاثة فحسب ، ثم ترد اليك الى الأبد ، فماذا أنت قائل ؟

تراسيما كوس — لا أتردد فى القبول فرحا راضيا .

فيلاليثس — ولكنك تعلم أنا لو سلبناك الوعى والشعور حيناً من الدهر ، ثم بعثنا فيك اليقظة والحياة ، فلن تدرك كم لبثت فى غيبتك إلا أن يقص عليك نبؤها بعد البعث . فهؤلاء أصحاب الكهف أووا الى كهفهم فضرب الله على آذانهم عدة سنين ، ثم بعثهم ، فقال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ؛ مع أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا . فان كنت كهؤلاء ستفقد إدراك الزمن ، فما ضرك لو أطلنا أمد الرقاد المفروض الى آلاف ثلاثة من السنين ؟

تراسيما كوس — لا شىء ، أحسبك مصيباً فيما تقول !

فيلاليثس — وإذا فرضنا أن تلك الآلاف الثلاثة قد تعاقبت عليك فى رقدتك ، وأن أحداً لن يوقظك بعدها ، أفتظن أن فى ذلك وبالاً عليك ؟ اللهم لا ! فان كانت عشرات قليلة من السنين قد عودتك الحياة وربطتك بها رباطاً وثيقاً ، يعز عليك كثيراً أن تنفصم عراه ، أليس أجدر بذلك الأمد المديد أن يعوّدك الموت ويوثق بينك وبينه الصلات ؟ وأحسب أنك لو ظفرت بمن يبعثك ويرد اليك وعيك المفقود ، لن ترضى عندئذ أن تطرح حالاً لابستك طوال ذلك العهد الطويل ، وسيزيد فى اطمئنانك حينذاك علمك أن هذه القوة السحرية العجيبة التى تحبيك فى الحياة الآن ، ستظل تنشر من الأحياء ملايين وملايين لا تنفك متعاقبة الى الأبد .

تراسيما كوس — ما أبرعك فى الحوار ، وما أروعك فى سحر المنطق وطلاوة الحديث ! ! انى لأكاد أستخف بشخصى وأستصغر حياتى ، التى طالما أحببتها وحرصت عليها أشد الحرص ولكن هيهات ، فلن أنخدع بهذا الأغراء ، ومازلت أريد بعد هذا كله أن أحيا بهذه الشخصية نفسها

فيلا ليثس — يارعاك الله ! كأنما بلغت شخصيتك من الكمال شأواً بعيداً ، بحيث يعز ضريبها على الدهر ، وكأنك عاجز الخيال لا تستطيع أن تتصور حالاً خيراً وأسمى ؟ عجباً ! ألا تريد أن تستبدل بنفسك الناقصة المحدودة نفساً أسمى مرتبة وأبقى خلوداً ؟

تراسيما كوس — ولكننى ياصديقى لست أملك فى ذلك اختياراً ، فشخصى بالغاً مابلغ من نقص وتحديد ، هو نفسى ، وهو عندى أعز مافى الوجود ، لاأعدل به شيئاً ، ولا أرجو إلا أن يمتد الأجل بهذه الذات التى ترى صورتها وتسمع صوتها ، ولايعنيني فى كثير أو قليل تلك الحياة الخالدة التى تظل باقية فى الكائنات الأخرى ، والتى تحاول بكل ماوسعك من دليل أن تقيم الحجة على أنها حياتى أنا ، فلست أرى خيراً فى حياة لاأحس بنفسى أنها حياتى .

فيلا ليثس — لست وحدك ياصاح تريد أن تبقى ، فكل كائن دبت فيه الحياة يريد البقاء ، وحسبك هذا دليلاً قوياً على أن هذه الرغبة الشاملة هى التى تنطق فيك بهذا الرجاء ، إنها ليست صيحة الفرد منك ، ولكنها نزعة الوجود بأسره ، إنها قوة عامة تنشد البقاء ولا عبرة عندها بالأفراد مادامت تحقق بقاءها المنشود ، فرغبة البقاء ، أو ارادة الحياة ، وقد التمست لنفسها الوجود والخلود ، فجسدت نفسها فى أفراد الكائنات ، وألقت فى أنفسهم وهماً بأنهم غايات مقصودة لذاتها ، لكى يحرصوا على الحياة ويكونوا وسيلة صالحة لبقائها ، والواقع أنهم ليسوا إلا أداة تستغلها تلك الارادة ، وسواء لديها أفنى هذا الفرد المعين أم امتد به الأجل ، مادامت تجد من غيره مايضمن بقاءها . . . حسبك ياأخى أن تعلم أنك أداة لتلك الارادة الشاملة ، وأنك صورة من صورها ، وأنك لست غاية مستقلة قصدت لذاتها ، وأن الحياة لن تخسر بفقدك شيئاً ، بل لعلها تجنى من ذلك خيراً كثيراً ، لأنها كانت سجينة فى قيود فرديتك ، مثقلة بمادة جسدك ، ثم انطلقت الى حيث لا قيود ولاحدود ! حسبك هذا لتعلم أن قصة الموت صبيانية تافهة ،

[البقية فى اسفل الصفحة التالية]

خواطر المصيف

الماء والسماء

بقلم محمد قدرى لطفى
ليسانسيه فى الآداب

كلاهما أحب الزرقة فآثرها لنفسه لونا ، وكلاهما آثر الرهبة فاتخذها لنفسه وصفا ، وكلاهما يمتد فلا يبلغ البصر منتهاه ، ويسرح فلا يعرف الطرف مداه ، قد حجب كل منهما الذى وراءه ، ولم يبد كل منهما غير صفحته ، لا تمل السماء النظر الى البحر ، ولا يمل البحر التطلع الى السماء ، صفحتان متشابهتان ، ووجهان متقابلان ، قد يبسم كل منهما لصاحبه فيصفو أديم السماء وتنبسط أسارير البحر ، ويكتنف ما بينهما هدوء يشرح الصدور وترتاح له النفوس ، وقد يُدِل كل منهما على صاحبه ، ويمكر كل منهما بمقابله ، فيعلو وجه السماء سحاب خفيف ، أو يسدل عليها نقاب منه شفاف ، وترتسم على وجه البحر تقطيبة من الموج . لا يلبث معها أن يهدأ فتزول ، وقد يتجهم كل منهما لصاحبه ، ويتجنى كل منهما على الآخر ، فتسدل السماء على وجهها حجاباً من السحاب أدكن اللون ، لا يشف عن شيء ولا ينم على شيء ، ويثور البحر فى عنف ، ويحتد فى غضب ، فيرغى ماؤه ويزبد موجه ، ويشتكى من لطاته شاطئه ، وقد تستسلم السماء الى البكاء ، فترمى البحر برذاذ من الدمع أو بوابل من المطر ، وقد يزأر البحر فترعد السماء ، ويزهو بياض الموج فيشتد من البرق اللمعان .

سبحان الذى جعل بينهما هذا الفضاء مجالا للطير ومسرحاً لكل ذات جناح ، وتعالى الذى جعل بينهما هذا الهواء حياة للكون ، ومطلباً لكل ذى روح ، ثم شاء الا تتقطع بينهما الأسباب والا تبعد بينهما الوسائل ، فتقاربا على بعد ، وتدانيا على تناء ، أضاءت السماء بنور الشمس ، فأرسلت على الماء من شعاعها فضة لا تذوب ، وتحلت السماء بضوء القمر ، فأهدت الى الماء صورته ، ورسمت على سطح البحر ظله ، وتجملت السماء بوشى النجوم ، فبعثت الى البحر منه ببريق ، ويا عجبا لوفاء تلك السماء لهذا الماء ، ما يكاد ينقضى النهار وتعتزم الشمس المغيب ، حتى توصيها الا ما قصدت الماء فى طريقها الى الغروب ، وأبلغته سراً من الأسرار لا يلبث وجه الشمس أن يحمارّ له احمراراً ينبئ عن السر ، ويفصح عن مدلول الكلام ، ويا عجبا لهذه السماء تضحك من أهل الأرض ، فتخيل اليهم أنها تلاقى الماء عند الأفق ، وتحسب أهل الأرض لها عُذَّلا ، فتوهمهم أنها طوقت الماء بجناحها ، وأرخت على صفحته طرفاً من ذيلها ، وتمكر بأهل الأرض ، فكلما قربوا من الأفق ابتعد عنهم ، وكلما علوا عنه اتسع أمامهم مداه ، ويا عجبا لهذه السماء حين تدِل على الماء ، وحين تتجنى على البحر ، فتغرى به الشمس أن الفحيه بشواظ من نارك تنفذ منه الى الصميم ، وارميه بسهام من شعاعك تخترق منه الفؤاد ، فما تكاد الشمس تأتمر بأمر السماء ، حتى يضيق البحر بوهج الأشعة وألم السهام ، فتذوب حشاشته ، وتتبخر عزيمته ، وما تكاد السماء تحس حر أنفاسه ، وتشعر بلافح زفراته ، حتى تسيل من الأسى دموعها ، وتتقرح من البكاء مقلتاها ، لله شأنها ! ! تريد أن تلعب بالنار فلا يمسها سوء ولا يلحق بها أذى .

ويأبى البر أن يترك الأمر خالصاً بين السماء وبين الماء ، فيود أن يكون له معها شأن أى شأن ، ويجب أن يكون له من كلٍّ نصيب وافر ، فيلجأ البر الى أهله يغريهم بالبحر ، وويل للبحر يومئذ من الانسان ، ويسلطهم على السماء ، ويا للسماء يومئذ من أهل الأرض ، أما البحر فقد قدروا عليه ، وهزئوا به ، فركبوا متنه ، ومخروا بالسفن عبابه ، وجرءوا عليه فغاصوا بالعلم الى قاعه ، لم يخفهم منه موت ، ولم يرهبهم فيه وحش ، أقاموا فوقه الجسور ، وشيدوا عليه السدود ، فقطعوه ولم تبتل لهم قدم ، وعبروه ولم يخلعوا لهم ثوباً . وهكذا قرب البحر من الانسان فاستخف به ، وتكشف البحر للانسان فلم يخش ما فيه ، ولو قد كان بعيداً لما استخف به أحد ، ولو قد كان غامضاً لما اطمأن اليه انسان ،

فليس جديراً بالخوف والاشفاق ، وليست حياة الفرد خليقة بهذا التقدير العجيب ، ولكم يبعثنى على السخرية إنسان يتمسك بحياته ويتشبث بها ، ويشفق من الموت ويخشاه ، كأنه وحده الكائن الحى الذى نيط به بقاء الحياة

تراسيماكوس — ليس لعمرى أبعث على السخرية من هذا الهراء ، ولولا رغبتى فى السمر واللهو ، لما استمعت اليك لحظة واحدة .

زكى نجيب محمود

فى الغموض سر رهيب ، وفى عسر المنال رغبة فى النوال .

ولم يكف هذا الانسان أن يلزم الجد مع الماء ، وأن يتخذ منه معيناً على الحياة ، وطريقاً الى الممالك والديار ، وانما أراد أن يمزح مع البحر ، وأن يلهو بالشاطىء ، فاتخذته الغيد مسرحاً يخطرن فيه ، وميداناً يصلن فى أرجائه ، سلاحهن الجمال ، وعدتهن الرشاقة ، واتخذه الرجال معرضاً يرون فيه مالم يكن من قبل الى رؤيته سبيل ، ويشاهدون فيه ماليس يوجد عند غيره ، واتخذه هؤلاء وهؤلاء ملهى وملعباً ومصطافاً ، فلم يبق للبحر من هيبته الا اتساع مداه وتراكم لججه ، ولم يعد للبحر من رهبته الا خواطر المتأمل فيه ، الناظر اليه حين يخيم عليه الظلام ، وتضن عليه السماء بنورها .

أما السماء فلم يبلغ منها أهل الأرض مابلغوا من الماء ، وإنما تنافسوا فى العلو اليها ، وتسابقوا فى الارتفاع الى ذراها ، فحالت الطبيعة بينهم وبينها ، وأوقفتهم عند حد من الفضاء محدود ، لايكاد المرء يعدوه حتى يضطر الى الهبوط أو يورد نفسه موارد الهلاك ، فتعلق الناس بالريح ولم يبلغوا عنان السماء ، ووقفوا منها على الأبواب ولم يبلغوا منها الصميم ، وقديماً تمنى فرعون لو أنه بلغ عنان السماء ، وقال : « ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطّلع الى إلـه موسى » فهلك عنه سلطانه وصدعن السبيل .

وهكذا بعدت السماء عن أهل الأض فعزت عليهم وخارت دونها قوائمهم ، وأسرفت فى النأى عن الناس ، فما زالت وراءها أسرار هيهات للمرء أن يكشف عنها ، ومازال فيها من الافلاك والاجرام ماليس يعرفه الناس إلا أمانى ، وقد كان أهل الأرض يفرحون لرؤية السحاب ، ويستبشرون بنزول المطر ، ويضحكون لبكاء السماء ، فما زالوا يرون فيها مصدر الخير وسر الطبيعة وينبوع الحياة ، وما زال الناس يلتمسون ضوء النهار من السماء ، ويفتقدون فيها ضياء البدر أو سناء النجوم حين يخيم الظلام ، فحفظوا للسماء قدسيتها ، وقدروا لها هيبتها ، وعرفوا الجن فى الأرض ، وقالوا الملائكة فى السماء .

والناس يوقنون أن الله معهم أينما حلوا ، موجود أينما وجدوا ، قد كان فى كل زمان ، وهو كائن فى كل مكان ، ولكن شاءت قدسية السماء ألا تلهج الألسنة بالدعاء حتى ترفع اليها الأكف وتتطلع نحوها الأبصار ؟

الاسكندرية — **محمد قدرى لطفى**

من الفصول التي يجب أن تقرأ مراراً

العاطفة فى الأدب

لغوستاف لانسون

الأستاذ بكلية الآداب فى باريس

ترجمة الأستاذ محمد روحى فيصل

— ١ —

تعوق العقلَ عن التأمل والتفكير أمور شتى وعلل مختلفة ، أهمها فى نظرنا هذا الاعتقاد السائد أن نشاط الذهن يخمد العاطفة المشبوبة ، ويقتل النزوة الحية ، ويحبس القلب الخفاق ، فلا أمانى ترف ، ولا أحلام تطيف ، ولا ذكرى تلوح ، ولا هوًى يبوح ، وانما العقل كله قد نأى عن ركدة الخمود ، واستيقظ من نوم الجمود ، رأىٌ فى إثر رأى ، وخاطر يتلوه خاطر ، ومقدمة تسوق الى نتيجة ، وتحليل يسلم الى استنباط ! إنه ليحسن بالأديب المبين أن يخنق صوت الفكر ويطمس معالمه ، ثم لا يُنطق سوى قلبه ، ولا يترجم عن غير لبه . إذن خلت لغته من ألوان الزينة المصطنعة ، وصفا أسلوبه من أصباغ البهرجة الزائفة ، ثم تراءت النفس على سجيتها الموهوبة من خلال السطور ، وبرزت نقية رائعة من بين سواد المداد .. !!

هذه دعوى — على جمالها وروعتها — عاثرة خاسرة ، ووجه الخطل فيها أن القلب لا يستغنى عن العقل ولا يستطيع أن ينكره فى حال من الأحوال . فان قوى النفس متحدة مشتبكة ، يتصل بعضها ببعض ، وتتداخل احداها فى جارتها الأخرى ، ويندس الضعيف منها فى القوى ، والكامن فى البارز ، والوديع فى المتمرد . وانما القلب الكبير تراه عند من له عقل كبير ، والطُّلعة البصير يفطن الى ألطف ما يضطرب فى الفؤاد من الميول والنزعات ، ويشعر بأدق العواطف وأهدإ الأحاسيس ، وعلى قدر ما يكون العقل من الثراء والخصب ، أو الفقر والجدب ، يكون القلب عظيما رفيعا ، أو وضيعاً خسيسا ! ! هؤلاء القديسون الصالحون ورجال البر والاحسان ، هم أصحاب عقول نيرة تناهض عقول العباقرة والمفكرين ، وقد يكون فيهم سذج غافلون فما يعني هذا أنهم

حيوانات هائمة سائمة ، ولئن كانت محبة الله وبرُّ عباده استجابة روحانية لنوازع القلب ومطالب الشعور ، فان تأسيس المدارس والأندية وبناء المستشفيات والملاجئ صورة من صور المنطق المنظم ، ومظهر من مظاهر الرأى والتدبير .

— ٢ —

يستبد الهوى المبرح ، ويجور الألم البالغ ، ويطغى الهيجان الثائر ، فتختبط النفس وتهتاج الأعصاب ويغلى الدم ، ثم تنطلق من شفاه العانى همسة محزونة ، أو صرخة يائسة ، أو قولة قوية جليلة ، تجرى خالدة على وجه الدهر ، وتذهب فى الناس مثلا سائراً وحكمة مضروبة ! أما النقد الحديث فما يحفل بهذا النوع من الكلام البليغ الجامع ، ولا يمنحه التعظيم والاجلال مثلما تمنحه الأمم والأجيال ، وانما يراه من عمل الراوى المؤرخ الذى سرده لزملائه المعاصرين ولمن يليهم الى يومنا هذا ، ويستنكر نسبته الى القائل الحساس ، والمؤرخ — بخلاف الصحافى — يملى على الحادث رأيه ومذهبه ، ويسرد الرواية على نحوه وأسلوبه ، ويسكب الكلم فى قالبه ومثاله

ويغضب الرجل فيحول باطنه ، ويختل ظاهره ، ويضطرب احساسه ، ثم تستبين طبيعته الصامتة كما خلقها الله ، وكوَّنتها الوراثة ، ووجهتها البيئة !! يقذف الكلمة من فيه فاذا هى كالسيف مضاءً ونقاوة ، واذا هى جماع فطرته النائمة ، وعادته الراسخة ، وغريزته الكامنة ..!!

لغة القلب آهة أو أنة ، أو نداء أو عويل ، ولكنه يكف عن التوجع والحنين حين تجتاحه موجة من الحب القوى أو الألم المميت ، وقد قيل إن الهوى يعمى ويصم ! فمن يفرق بين القلب والعقل ثم يروز الأول ويهمل الثانى ، لزمه الايجاز فى البيان ، والاقتضاب فى الكلام ، ذلك بأن المبين اذ يسمى شكواه ويدل على بلواه ، إنما يعلن جميع ما يكنه فؤاده من الخلجات ، ويذكر كل مايحز نفسه من اللواعج ، ثم لايرى شيئاً يتخذه مادة للكتابة ومفتاحا للتحدث والافاضة ! تمثل محباً ملأ الحب جوانحه ، وتغلغل فى حناياه وأحشائه ، واختلط بلحمه ودمه ، شاء أن يصور هيامه المستفيض فى إسهاب وتفصيل ، فلتجدنه أحرص الناس على الايجاز فى التصوير ، وأقلهم تبسطاً فى الحديث ، فما يكاد يسجل هذه الجملة المألوفة المبتذلة : « إنى أحبك » حتى يعيد لفظها ويكرر معناها . سطران لا غير يخطهما المحب ، ثم يرمى القلم فى انكماش ووجوم ! !

ونلاحظ أن النفس الراضية المطمئنة قد تلتوى على الكاتب ، وتجهده عند الاعراب والتبيين ، وتستهلك ملكاته النابهة ، وأدواته القوية . أما الميول المصطدمة والأهواء المتعاكسة ، فهى تظهر فى يسر وسهولة ، ولا تستلزم عبقرية عالية أو مبيناً كبيراً . ويرجع هذا الى أن النفس الراضية المطمئنة ، لاتتطلع لغير حاضرها ولا ترغب إلا فى هدوئها وراحتها ، وهى انما تنطوى على مشاعر حلوة صافية لا سبيل الى الخلوص اليها بلفظ أو كلام ، وحسبها من ذاتها أن تستمتع بما تحس ، وتتملى ماتشعر ، وتذوق ماتحلم ! ولكن الميول والأهواء اذ ترتطم وتتعاكس تثير ألف خاطرة ولاعجة ، من ندامة على الماضى وأمل فى المستقبل ، وخوف من المصير ، وكلها هواجس يفطن لها الكاتب الصغير ، بله الألمعى القدير ، ثم يبرزها مخطوطة واضحة على الطرس ...

مظهر الألم صوت ملجلج ، ووجه أغبر ، ورعشة باليد ، ودمعة فى المحجر . فلاعراب عنه بلفظ قريب لا لبس فيه ولا غموض انما يحتاج الى عقل خصب يتأمل وجه الألم الذى يتحسسه ويدرك قيمته وأثره ، ويعرف أين يتحد مع غيره من العواطف ، ومتى يختلف ثم يعرضه تاماً صحيحاً غير منقوص ولا مشوه ، وكلما كان التأمل العقلى كثيفاً نافذاً كان الألم أكثر وضوحا وأبهر لوناً وأدق تعبيراً .

تلكم صفحات الأدب الباكى فاقرأوها بامعان ، وفتشوا فيها عن القلب المنفطر ، وتبينوا النفس المعذبة ، ألستم توافقوننا على أن الأديب انما اتخذ العقل مبضعاً يشق مطاوى القلب ، ويسبر غور الضلوع ، وينفذ الى حقيقة البكاء ومصدر اللوعة ؟ !

ولقد حفظ التاريخ القديم فيما حفظ فى ذاكرته الواعية رسائل طريفة انحدرت إلينا كاملة من شيشرون ومدام سيفينيه ، وهى رسائل تفيض بالشكوى وتنزى يأساً وألماً ، كشف فيها الخطيب الرومانى عن الحب الأبوى حين ماتت ابنته وذهبت الى حيث لارجعة لها ، وأبانت المركيزة الفرنسية كيف تتوجع الأم الرؤوم حين تزوج ابنتها فى الديار النائية والغربة الطويلة ! وإن الآباء

والأمهات ليبكون أبداً أولادهم وبناتهم عند الموت ووقت الفراق، ولكنهم لايستطيعون وصف ما تكابد مهجهم من هموم وأشجان، وليس الذنب فى ذلك ذنب قلوبهم المترعة المفعمة، وانما هو ذنب عقولهم القاحلة، وألسنتهم البكيئة، وأقلامهم الجامدة

والطريف فى هذا الباب ما يزعمه هيجو من ان الشاعر مصلح عظيم ونبى كريم، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب؛ وقد دفع هيجو الى هذا الرأى الأرستقراطى غروره المسلكى، وحماسه الوطنى، وتطرفه المعهود، وخياله الواثب. والحق أن الشاعر رجل مثلى ومثلك، يرى ما نرى ويشعر بما نشعر، وانما يمتاز بنوع من الامتياز لا ينهض به الى صف المصلحين ولا يرفعه الى مقام الأنبياء – يمتاز من غيره من الناس بهذا العقل الحاجى المسجل الذى يقدر على الأبانة عما يرى ويشعر، ويعرف كيف يصور ما يتجاذبه من المنازع والأهواء

فالتأمل الذهنى كما ترى ضرورة من ضرورات البيان، فلا تظهر الخلجة النفسية على النحو الذى قذفتها الفطرة ودفعها التطور واكتنفتها الحياة، الا بالمراقبة الباطنية العميقة. والمعمود انما ينبغى أن يكون على شيء من العلم بمواقع الأعضاء حتى يصف للطبيب المرض الذى ينتابه والداء الذى ينهشه، ولكن الطفل إذ يتألم لا يفقه ألمه ولا يعلنه الا فى ابهام: يصرخ ويبكى، وهذا كل ما عنده من وسائل الاعلان وأدوات الأفصاح!!

إن الأدباء المحدثين ممن نقرأ لهم ونستمع لأحاديثهم فى الصباح وفى المساء، يلتزمون البساطة فى اللفظ والمعنى، ثم ينحدرون الى النفس المتأخرة الابتدائية التى لم يصقلها العلم ولم تهذبها المدنية، فينتزعون منها الشعور الفطير والعاطفة الساذجة، وهم موقنون أن الأخلاص فى الأدب أو الصدق فى التعبير لا يكون الا حيث يكون الطفل الصغير أو الجاهل الأمى موضوع الحديث ومدار البيان، ولست أعرف انحرافاً عن الحق وخللاً فى المنطق يشبه ذلك الانحراف وهذا الخلل، فان الثقافة العلمية لن تفسد النفس والشعور، ولن تمنعهما عن البوح والظهور

وقد كان المؤلفون اليونان يستصرخون أبطال رواياتهم، ويستدرون عبرتهم، ويتعمدون إيلامهم. وكانوا يسهبون فى وصف الألم، ويذكرون بواعثه ونتائجه، ويتغلغلون الى كنهه وحقيقته. فهم فنانون حقاً يلتمسون مواطن الجمال المنسجم، وينشرون مواضع الحقيقة الفنية، أصحاء الذوق أقوياء الحواس، يجمعون الى تبدل اللون وتقلص العضلات واختلال الحركات تدفق الألم الداخلى، وأفاعيله النفسية، وأثره فى الرءوس والقلوب. وقد ترسم شكسبير خطاهم ونهج سبيلهم، فكان يصور أوضاع الجسد ثم ينفذ الى الألم ذاته، ويربط بين اضطراب الحواس اللدنة، وهيجان النفس الباطنة

ونحسب الآن أننا كشفنا عن الصلة المتينة بين القلب والعقل، ونبهنا الى خطر التفريق بينهما، والى قلة الابداع والانتاج عند إهمال التأمل والتفكير، فان كثيراً من الناس ليحسون أقوى الاحساس، ويشعرون بأشد الشعور، ولكنهم لا يعبرون عن احساسهم وشعورهم، لأنهم ضعاف العقول ضئال التفكير، وأغلب الظن أن المبين لو راض عقله وصقل ذهنه بالتأمل الدائب الملح لوفق فى رسالته أحسن التوفيق، ومضى الى غايتــه كما يرجو ويرجو له النقاد والباحثون

— ٣ —

ما دام الأديب أداة تصوير واعية مرهفة تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة، وصور الحياة، فلن يحس بالفراغ يملأ ذاته ولا بالوحشة تحف نفسه وكيانه، وهو أبداً يرقب جيشان عاطفته، ويرصد خفوق قلبه. ثم يستمتع بهواه وشعوره، والاستمتاع هنا معناه استيقاف الحياة قبل أن تطوى، والاحساس بها احساساً «مضاعفاً» قوياً. وفى النفس نزوات مبهمة خافتة، يبصرها الأديب الصناع ثم ينشرها عارية واضحة تكاد من فرط ظهورها تطفر لعين الرائى المشاهد

ويعتقد الأستاذ إميل فاجيه أن التكلف فى البيان أشر ما يبلى به الأديب الفنان من العلل والأدواء، وهذا حق لاريب فيه، وانما الريب فى قول من قال إن مراقبــة النفس تقتضى التصنع، وتؤدى الى التكلف، لأنها إنما تقتل الطبع الموهوب والهمة الفتية، والقوة الدافقة. والحق إن المراقبة اذا كانت منظمة متصلة توسع إطار الاحساس، وتوضح بداءة الشعور، وتنهض بالقريحة الخابية الهامدة. فلقــد تستكين العاطفة ويخمد أوارها، وتهدأ حدتها ويبرد لهبها، وليس هذا مما نسميه النضوب والأمحال،

وانما هو أثر من آثار الأعياء والنصب الشديد ، كأنما العاطفة المكدودة تنام فى جو مظلم ساكن ، وكأنما القريحة المتعبة تقف عن الشعور فترة غافلة من الزمان ! وفى هذه الحال لقد يأخذ الأديب نفسه بوصف منظر أو تبيان خلجة فيقف مكتوف اليدين متبلد الحس ، جامد القلم

فالمراقبة انما توقظ العاطفة النائمة أو هى تهيجها كلما غفت ، ومن العجب أن تكون سبيلاً الى التكلف المرذول والتصنع الممقوت ، وعهدنا بكبار الشعراء أمثال لافونتين ولامارتين أنهم على هيامهم بالتنقيح والمطالعة والتأمل ، كانوا أطلق الشعراء لساناً ، وأرقهم بياناً ، وأسلسهم لفظاً

ومن الأدباء من لا يستوحى نفسه ، ولا يترجم عن طبعه ، وانما يستقى من ذاكرته ومحفوظاته وقراءته ، وهؤلاء يكتبون فى غير جدوى ولا طائل ، والمعروف المتــداول أنهم يأتون غالباً بتشابيه مستعارة ، وكنايات معادة ، وصور مبتذلة لا تعبر عن « شخصية » ولا تنم عن جديد مبتدع . وانما الرجوع الى الطبع دون الذاكراة الحافظة هو مصدر الأدب الخالد والابتكار القويم ، وليس من شك فى أن التكلف يضمحل ويتزايل أثره ، كلما رجع الفنان الى نفسه وعوّل على طبعه واستقى من عبقريته . ولقد يجمل بالمبين أن يتناول ما تمده القريحة فى الوهلة الأولى واللمحة الخفيفة ، وألا يصطنع شعوراً لا يتردد فى أطواء نفسه بل يأخذ ما جادت به العاطفة من غير جهد ولا عناء ! !

وكلمة « أنا » وما يشتق منها قد تكون سبباً مباشراً من أسباب التكلف البيانى ، لأنها تتصف بالشمول وتجمع الشتات كأنما هى عنوان النفس ورمز العاطفة ، والسبيل الذى ينبغى أن يسلكه الأدب الرفيع هو أن يحمل كل لفظ من ألفاظ اللغة جزءاً من النفس وقسماً من العاطفة ، أما « أنا » فما ينبغى أن تكون إلا عيناً تتفجر منها الأفكار والمعانى ، وتصدر عنها الأساليب واللغات ، وتصب فيها فروع الكلام وأغراض البيان

فاذا كان فى هذا عسر ومشقة ، فان الرياضة والمران حقيقان بأن يذللا كل شىء ، وكما يخلق اللاعب المرتاض لجسده الحواجز ليجتازها ، والجبال ليتسلقها ، والوديان ليهبط اليها ، كذلك يخلق المبين لنفسه طرائق ملتوية ليمارسها ، مهما تكن تلك الطرائق وهمية خيالية ، مادامت الغاية محمودة تبرر الواسطة ثم تخضعها بالتجربة والعادة

كانت العصور السالفة تقدم للمبين مواد التفكير الصحيح ، وأسباب العاطفة الحيــة ، وأدوات الكتابة الخالدة . وكانت الظروف والأحوال تنشىء المرء إنشاء جميلا قوياً ، وتعده لحياة شديدة فيها من الجد والنشاط ، ومن الأبداع والانتاج ما يزرى بحياتنا الحاضرة الراكدة ، ويستخف بعيشنا اللاهى الهازل ..!!

كان الطالب إذا نال الشهادة وخرج من المعهد لا يرى بضاعته من العلم إلا قليلة موجزة ، ولا يعتقد فى نفسه إلا القصور والجهل ، فما يزال يقرأ فى الكتب والأسفار ، ويتلقى عمن هو أكبر منه سناً وأوسع تجربة ، حتى يريش ويهرم ، فهو أبداً فى دراسة دائبة ، واختبار متصل . ولم يكن مقياس النبوغ سعة القراءة والرواية ، وانما هو الفهم السليم والنظرة الصائبة . وكانت الآداب على اختلافها دروباً متشعبة تنحدر كلها به إلى النفس الانسانية يطالع منها ما يطالع ثم يجمع المتشابه ويفرز المتشابك ، ويستعمل النابه ويعنى بالضعيف الخامل . أما القصة فما كانت تتلى للتسلى والمفاكهة أو لترجية الوقت والفراغ ، وهى التى قد تبلغ عشرات المجــلدات مخطوطة ومطبوعة ، وتلاقى من الرواج والذيوع مايستدعى الدهشــة والأكبار ! هذا إلى تراجم المؤرخين ، وتأملات الحكماء ، ومواعظ الزهاد والخطباء ، مما يوقظ العاطفة والشعور ويربى ملكة الانتباه والتفكير . وفى حضرة المرأة والطفل الناشىء كانت تثار فى غير تحرج ولا تقيــة أعوص مسائل الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد . وكان العرف الدينى والاعتراف الكهنوتى ، وحب الفضيلة يقلق المؤمن ، ويقض مضجعه ، ويضطره إلى مراقبة نفسه وإلى التعبير الدقيق عن خطراته ونياته

ومن ثم كانت النساء اللواتى لم يتعلمن سوى الأدعية والصلوات ، وكان الشبان الذين لم يفقهوا غير المبارزة والرقص — كان هؤلاء جميعاً يعبرون عن مرادهم تعبيراً حسناً ، ويفكرون تفكيراً صحيحا ، فكانت الكتابة عندهم كالمحادثة والحوار ، يمنحونهما الجهد والأناة ، ويقصدونهما بقلوبهم وعقولهم مجتمعة متساندة .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

١٠ - أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ حسن الطويل

المالكى

الامام العلامة ، شيخ الشيوخ ، وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرّد فى مصر بالبراعة فى المعقول والمنقول ، وأتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلوّ النفس ، والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات .

وهو حسن الطويل بن احمد الطويل بن على ، ولد بمنية شهالة إحدى قرى المنوفيـة ، حوالى سنة ١٢٥٠ كما سمعته من تلميذه الخاص العلامة الشيخ أحمد أبى خطوة . وذكر الشيخ بشـير الظافر فى كتابه اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة ، أنه ولد سـنة ١٢٥٦ ، وتربى بهذه القرية فقرأ القرآن الكريم وحفظه بها ، ثم انتقل الى طندتا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث ، ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر ، مثل الشيخ محمد عليش المالكى فى الفقه والحساب وغيرهما ، وعلى الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ ابراهيم السقاء ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الأنبابى ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى ، فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ فى حضور السعد ، وكان من دأبه فى أول أمره معاكسة المشايخ فى الدروس بكثرة الأسئلة والمناقشات ، حتى حدث مااضطره إلى الأنقطاع عن الأزهر ، وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول فى الجندية بقانون وضع لذلك أمر به سعيد باشا والى مصر ، ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته طلب معهم

تجنيده بأمر سعيد باشا

وجند مع من جند فصار واحداً منهم ، إلا أنه لم يسلك مسلك أكثرهم فى التفريط فى الفروض ، فكان يواظب على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى ، وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ احمد شرف الدين المرصفى كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرج كربه وتخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم اهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ماوقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالتمارده ، فغضب مرة على التمارده وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه إلا أنهم بقوا تابعين له ، وهم ما كانوا يسمونهم بالعساكر الأمدادية ، وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة ، وكان قبل ذلك يجتمع على الشيخ خالد أحد مشايخ الطريق فرأى أن يسافر اليه فسافر الى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال المنية أى منية ابن الخصيب ولزمه بعض أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطريق

فراره

ثم طلب الى الجندية مرة ثانيـة فذهب اليه أبوه ليحضره وأراد الشيخ خالد منعه فلم يرض هو بل عاد مع أبيه الى قريته فوجدهم أهملوا طلبه ، فحمد الله وأراد والده ابقاءه معه فى القرية خوفاً من أن يعود الى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر وخرج

أما اليوم فالذاكرة الحافظة هى غاية الغايات ، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدى ضيق من الزمن كما يكدسون فى المركب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة لتقلها إلى المرفأ سالمـة لا أكثر ولا أقل . والمرفأ هنا هو الفحص الذى ينتهى عنده الدرس ، وينسى الطالب بعده ما اكتسب من العلوم . ذلك بأنه تعلم منفعلا لا فاعلاً ، تعلم كما تدور الآلة من غير وعى ولا تفهم ، فالبرامج واسعة ، والوقت قصير ، والتمثيل منعدم ، والهضم سىء .

وجملة القول أن التربية الحديثة ، لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية ، ولا تهيىء العاطفة للفن والكتابة . وما دام الخروج على البيئة مستحيلا ، فان تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغى العناية بأمرهما والنهوض بهما ؟

حمص « سوريا » محمد روحى فيصل

من غير علم أبيه من القرية وهو لا يملك شيئاً ، فمشى على قدميه يبيت فى كل بلدة تصادفه حتى وصل الى القاهرة ، ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئاً أكله ، وذهب الى الأزهر فصادف الشيخ محمد السقّارى فى طريقه ، فلما رأى المترجم أسرع اليه وهش له ، وأخبره أنّه يطلبه من مدّة . ثم أنزله بداره وحلف أن يبق بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده ، وكان مراد السقّارى نظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له وأخذ السقّارى عليها أربعين ديناراً جائزة . ولما انقضى الشهر حفّ الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن العدوى لتصحيح البخارى ، وكان شرع فى طبعه فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب الى ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتحنه فأعجب به ، وكاد يطير فرحا وقال عنه هذا جوهرة خفيت عنّا ، واستخدمه فى الحال للتصحيح بهذا الديوان ، وسعى له حتى محوا اسمه من الجيش حتى لايعاد طلبه .

ثقافة شاملة

وكان المترجم فى هذه المدة عاد لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهل للتدريس فدرّس بالأزهر ، وكان أول درس قرأه فى شوّال سنة ١٢٨٣ . وابتدأ فيه بالقراءة فى الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقّب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الافغانى فتلقّى عنه العلوم الحكمية ، وبرع فيها ، وتلقّى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى ، ونظر فى الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبّر ، وطالع كتب اللغة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسّل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلاّ ويسعى اليه ويتلقاه عنه كائناً من كان ، حتى صار نسيج وحده ، وقريع دهره ، فى سائر العلوم مع بعد النظر فى السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الأنكار على البدع والمستحدثات فى الدين .

مشاهير تلاميذه

وقد قرأ عليه فى الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين ، فكان الشيخ الأجلّ أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد عبده ، والسيد احمد الشريف ، وابراهيم بك اللقانى ، والشيخ محمد راضى البولينى ، ممن قرأ عليه فى الطبقة الأولى من تلاميذه . ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ محمد الغرينى ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعه ، وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، وغيرهم ممن لا يحصون ، واختصّ به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ راضى البولينى ، والشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، فكانوا يقرأون عليه فى داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه فانتفعوا به فى دينهم وأخلاقهم فوق انتفاعهم بعلمه .

ثم نقل الى نظارة المعارف وعيّن للتفتيش فيها ، ولما مات الشيخ زين المرصفى مفتّشها الأول سنة ١٣٠٠ ، وأقيم بدله الشيخ حمزة فتح الله المفتش الثانى جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرّساً بمدرسة دار العلوم ، فعمّ الانتفاع به ، وتخرّج عليه أحسن من نراهم الآن من الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدىّ ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ عبد الوهّاب النجّار وغيرهم من أفاضل الوقت .

وفاته

وبقى فى هذه المدرسة الى سنة ١٣١٧ ، وكانوا شرعوا فى الامتحان قبل الأجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كعادته . ثم ذهب لداره معافى ليس به شىء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح . ثم طلب الافطار والقهوة ، وأخذته غفوة كان فيها القضاء المحتوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم الاّ والنعاة ينعونه والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وأمّ داره شيخ الأزهر الشريف الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، والشيخ محمد عبده المفتى ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً ، فصلوا عليه فى الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين رحمه الله وغفر له عدد حسناته . ومن غريب المصادفات أنه زارنى قبل وفاته بيومين فى ليلة مقمرة ، فجلسنا فى صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولعاً به مع قلة اجادته فيه ، فقال لى عند ما أراد الذهاب نحن الآن فى الامتحان ، وقد قربت الأجازة ، وصدرى ضيّق فى هذه الأيام من الناس ، ونفسى تجنح للعزلة ، فهل تعرف لى مكاناً أقضى فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت يا سيّدى اذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً الى ضيعتنا التى بقويسنا فنخلوا

فيها بكتاب نقرؤه ، فقال نعم الرأى هذا ، وسأستصحب معى ولدى حسناً ليشترك معنا فى القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله الى جواره ويسر له العزلة ، ولكن فى دار قراره ، فاصبت فيه مصيبة لم أُصبها فى بعيد ولا قريب ، لما كان له علىّ من الفضل ولو لم يكن له علىّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفيّة السمحاء لكفى .

الأستاذ رشد

أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه ، فانى كنت خرجت من المدارس بعد تلقى ما يُتلقّى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين ، وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالاسلام ومحاسنه ، والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات . ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ماعليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها ، وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد التناقض والتصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ، لعلى أجد عندهم مفرجا فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، فاما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس . حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفرّوننى منه حتى بالغ بعضهم عامله الله بما يستحق ورماه بالزندقة ، فقلت اذا كنت لم أجد طَلِبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع ، فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه ، والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربيـة والمنطق ، وأعدت عليه الصرف بتوسع وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة فى شرح الدوانى على هياكل النور للسهروردى ، وشرح رسالة الزوراء وغير ذلك . ولما رآنى مجدّا فى التحصيل ، قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيـه كتب الأدب ونحوها ، وأنا فى كلّ هذه المدة أستوضح منه ما أشكل علىّ فيحلّه لى ، فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى ، وكثيراً ما كان يغضب منّى ويؤنّبنى اذا رأى منى تهاوناً فى الصلاة .

وكان من عاداته الخروج الى الريف كل خميس ترويحاً للنفس فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحى القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فودة فيقضى عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت فلما عرفته صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر فى بعضها إلى ضيعتنا التى بقويسنا أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه فيقرر لى المسائل ونحن سائران

كان متصوفاً

وكان رحمـه سنىّ العقيدة ، صوفىّ المشرب ، لايحيد عن الشرع قيد أصبع ، آخذاً بمذهب الامام ابن تيمية فى مسئلة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكراً على المبتدعة أشد انكار ، آية من آيات الله فى معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلعاً من الحديث ، متحصناً بالشريعة فى كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات ، وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره فى ذلك عجباً وشأنه فيه مستغرباً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومع انحراف علماء الأزهر عنه لانكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فانهم كانوا مقرين بفضله ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه فى معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين

أخلاقه ومساعيه

أما أخلاقه فزهد غريب ، وعلو نفس عن الدنايا ، وبعد عن الرياء ؛ وتواضع مع كل انسان ، وسذاجة فى المطعم والملبس والمسكن ، لاينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ويتصدق بالباقى فى الخفاء ؛ فلما مات قام الصراخ فى دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل ، كان يعولهم فى كل شهر بما فضل من نفقته ، وما علم بهم أحد حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به إلا بعد موته .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر فى مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله يحفهم ، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين ، تقوى على جمع شملهم ؛ ولذلك لما قام المهدى بالسودان وانتصر انتصاراته المشهورة واستولى على البلاد السودانية ، أحسن المترجم فيه الظن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

المعلقات
رأى جديد فيها
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

اختلف علماؤنا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية تلك القصائد التى جمعها حماد الراوية باسم المعلقات ، وكان حماد أول من جمعها فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل عصر بنى العباس ، وذلك أنه رأى زهد الناس فى الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة ، ويراد بالشعر الذى زهد الناس على عهد حماد فيه الشعر الجاهلى القديم ، وإلا فان سوق الشعر كانت رائجة فى عهد حماد ، وكان الشعراء المحدثون فى ذلك العهد لا يحصون من كثرة ، وقد ابتدأوا يخرجون على الشعر القديم ويزهدون فيه ويهجرون مذاهبه وأساليبه ، وكان أول من فعل ذلك بشار بن برد الذى يعد فى رأس الشعراء المحدثين ، وكان من أصدقاء حماد المقربين ، فدعا هذا حماداً إلى محاولة إحياء ذلك الشعر المهجور ، وترغيب الناس فى حفظه وروايته ، فجمع هذه القصائد لهم ، ولعلها كانت أول ما جمع من هذا الشعر.

ويؤخذ من نص الرواية السابقة فى جمع حماد لها أنها لم تكن قبل جمعه لها تعرف بهذا الأسم « المعلقات » وأنها كانت تسمى عقب جمعه لها القصائد المشهورة ، أخذاً من قوله بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المشهورات » ولو كانت تسمى قبل جمعه لها باسم المعلقات لقال بدل هذا بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المعلقات » فسماها باسمها المعروف ، ولم يعدل عنه إلى ما ذكره فى تميزها ، فعدوله إلى ذلك دليل على أنها لم تكن تعرف باسم المعلقات ، بل إن عنايته بجمعها وما عمله فى ذلك من أقوى الأدلة على أنها لم تكن تعرف بهذا الأسم ، لأنها لو كانت تعرف قبل حماد به لكان لها اسم يجمعها ، وكانت مجموعة بالفعل فيه ، ولم يكن هناك من حاجة الى جمع حماد لها

فاذا أردنا أن نعرف كيف حدث هذا الأسم « المعلقات » لها بعد جمعها ، فلننظر ماجرى للناس معها بعد جمع حماد لها ، فلقد أخذوا يعنون بحفظها وشرحها ، ثم شغفوا بذلك الحفظ والشرح واتخذوها متناً شعرياً مثل المتون التى دونت فى العلوم بعد جمعها ، وشغف النـاس بحفظها وتعليق الشروح عليها ، ولكن هذه القصائد كانت أسبق جمعاً من هذه المتون ، حتى أتى عليها زمن وهى منفردة بعناية الناس بتعليقها حفظاً وشرحا ، فشاع لها بين الناس هذا الأسم الجديد « المعلقات » ونسوا به اسمها القـديم « القصائد المشهورة » ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء من العلماء من عنى بفهم هذا الأسم الجديد لها ، ومعرفة سر اطلاقه عليها ، ففرض له تلك الفروض الخاطئة التى سنبين فيما بعد خطأها

ولاشك أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد مما عنى به الناس بعد جمعها من حفظها وشرحها ، فان الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه ، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحاً له ، ولا تزال الشروح التى توضع على المتون ونحوها تسمى شروحاً وتعليقات ، وقد جاء فى القاموس والأساس أنه يقال فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك ، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها ، وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ما عنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر

فهذا إن لم يكن هو الذى وقع فى حدوث هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد بعد جمعها ، فهو فرض قريب يرتاح اليه العقل فى بيان وجه تسميتها بذلك ، وهذا شأن كل الفروض العلمية التى يراد منها تقريب فهم بعض المسائل العلمية من العقول ، إذ تستعصى عليها ، ولا يمكنها بيقين معرفة سرها ، وهو خير من تلك الأمور الخاطئة التى يذكرها من يذهب الى أن تلك القصائد كانت تسمى قبل جمعها باسم المعلقات ، ولا يذكرها على أنها

وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، حتى اضطر الانكليز أن يسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه لولا أن سلمه الله

ولمداومة اشتغاله بالاقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً ، غير أن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس بجمع ما يلقيه من الدروس ، وكان يدرّس التفسير بمدرسة دار العلوم ، شرع فى جمع ذلك فى كتاب سماه « عنوان البيان » لم يطبع منه غير المقدمة سنة ١٣١٦ ، أى قبل وفاته بسنة .

أحمد تيمور

فروض يهون الخاطئون فيها ، بل على أنها أمور وقعت وكانت سبباً فى تلك التسمية

قالوا إن الشعراء فى الجاهلية كانوا يقصدون أسواق العرب التى كانو يقيمونها كل سنة بجوار مكة فيتناشدون الأشعار ، وكان ينصب للشاعر فيها ربوة فيصعد اليها ، وتحدق به العيون ، وتشرئب اليه الأعناق ، فينشد قريضه عليهم حتى يأتى على آخره ، فلا يقاطعه أحد ولا يستوقفه ، فاذا ما أحكم القول ، وبلغ من الفصاحة ماوقع اتفاقهم على حسنه وإجادته كتبوه بحروف الذهب على نفيس الديباج وعلقوه على الكعبة المشرفة ، تنويهاً بشأن صاحبه ، وتخليداً لذكره

وممن قال بهذا أو نحوه فى سبب تسمية تلك القصائد بالمعلقات أحمد بن عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد ، وابن خلدون ، وابن رشيق . قال ابن عبد ربه : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات »

وقال ابن خلدون بعد كلام له فى ذلك « حتى انتهو إلى المباهاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام ، موضع حجهم ، وبيت أبيهم ابراهيم كما فعل امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع »

وقال ابن رشيق « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم ، فكتبت فى القباطى بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء »

وكان أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ يخالف صاحب العقد ومن تابعه على هذا المذهب فى علة تلك التسمية ، وكان أبو جعفر معاصراً لابن عبد ربه وهو من علماء المشرق ، أما ابن عبد ربه فمن علماء الأندلس والمغرب ، وقد ساح فى بلاد المشرق وسمع من علمائه ، ثم رجع الى بلاده

وقد قال أبو جعفر فى هذا من شرحه على تلك المعلقات « واختلفوا فى جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوا لنا هذه ، وأثبتوها فى خزانتى ، وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة »

ولم يذكر أبو جعفر من هو هذا الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزانته ، وقد رجح بعضهم أنه النعمان بن المنذر لأنه هو الذى كان يعنى من ملوك المناذرة بجمع أشعار العرب ، وكان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول ، وقد صار ذلك الديوان أو مابقى منه الى بنى مروان على مارواه أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى فى كتابه طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين

ويستند أبو جعفر فى رأيه هذا على ماقيل الى أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ويؤخذ من ذلك كله أن تسميتها بالمعلقات عند أبى جعفر يرجع الى قول الملك علقوا لنا هذه ، لا الى أنها علقت فى الكعبة ، ولست أدرى على أى شىء يستند أبو جعفر فيما ذكر عن حماد فى جمع هذه القصائد ، وهو كما قلنا ينقض تسميتها بالمعلقات قبل جمعه لها ، سواء أكان ذلك للوجه الذى ذكره أم كان للوجه الذى ذكره غيره

ولاشك أن عصر النعمان بن المنذر أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات ، مثل امرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فلا يصح أن يكون هو الذى كان يعلق قصائدهم بخزانته ، بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ ، واستحسانه إنشادها ، بل إن سوق عكاظ ، ويكادون يجمعون على أن تلك القصائد كان ينشدها أصحابها فيه ، أحدث بكثير من عهد هؤلاء الذين ذكرناهم من أصحاب المعلقات ، فقد أقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وهو العام الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم بقيت الى مابعد الاسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وفى عهد إنشائها كان جيل امرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة قد انقرض ، أو كاد ينقرض ، وانا نستطيع أن نجزم بأن هذه القصائد السبع لم تقل فى سوق عكاظ ، ولا فى غيره من الأسواق العربية التى كانت معاصرة له ، وقد ذكروا لها أسباباً معروفة قيلت من أجلها ، وأمكنة غير سوق عكاظ أنشدت فيها ، وذكروا لبعضها ملوكاً غير النعمان قيلت أمامه ، ولسنا فى حاجة الى تفصيل هذا كله لشهرته ؟

عبد المتعال الصعيدى

من شعر الشباب

السحاب

مُزجي الشتاء بخيله وبرجْلِهِ   والمنذرُ الدنيا بوشْك إيابهِ (١)
يَشجُوك من ماشٍ على لِمَمِ الرُّبى   طرّاقِ أجوازِ المدى جوّابه
تسعى جنود البرد تحت جناحه   والريح والإعصار حول ركابه
حيث انتحى أرخى مسائح (٢) دَجْنِه   وتجلّلَ الآفاقَ جَوْنُ حجابه
ورمى على شمس الضحى بمسوحه   وطوى محياها دُجى جلبابه
ليس الربيع بمانعٍ رَجَعاتِهِ   رغم الربيع ورغم وَفْرِ شبابه
فإذا دنا انقبض الفؤاد تطيُّرًا   بقدومه من بعد طول غيابه
وأثار في النفس القنوط وأشفقتْ   من ثِقْلِ خطوته ومن إبابه (٣)
فإذا سرى بردُ القِلال مخالطاً   أجزاءه وانسلّ في أعصابه
أوْهى عُراه وفتّ في أوصاله   فانصبّ ملءَ السهل في تسكابه
فَجَرَتْ عيون الأرض بعد جفافها   وروى نبات الأرض من أكوابه
في كل غابٍ داغلٍ أو غيضةٍ   غدقَتْ غواديه وأفرغ ما به
وبكل قاعٍ مُمرعٍ ويفاعةٍ   توقيعُ وكّافِ النّدى صبّابه
وبكل منحدرٍ تدفّقَ مَشْرعٍ   ينساب في إزباده وحبابه
لم يُلفِ شيئاً ثم يشكو جَدْبَهُ   ظمآنَ إلاّ لجّ في إخصابه
حتى إذا أفنى غزيرَ شؤونه   همياً وأنفدَ كلّ ما بِوِطَابِه
وسخا على الوادي اليَنيع بروحه   وعلى ثناياه وبين شعابه
ولّى وغادر بعده أسلابه   تزهو بقاع الأرض في أسلابه
تمايد الأعواد في أندائه   طرباً وتغدّقَ (٤) في نقيّ رُضابه
فأعجبْ لأسودَ ذي يدٍ بيضاء لا   ينفكّ يُسبغ من شهيّ رغابه
جهم المحيا لا يُرام لقاؤه   والجودُ والبركاتُ ملءُ إهابه
عبَسَتْ لغُدْوته الرياضُ فإن مضى   هشّتْ لفيض يديه بعد ذهابه
وترقرقت في كل روض قُضْبُهُ   مُخضلّةً ريًّا بِبَرْدِ شرابه
وتألّقت حُمْرُ الزُّهور وصفرها   حَلْيًا ووشْيًا في اخضرار ثيابه
وسَرى النسيم مُجَمَّعًا أين انتهى   من زهره الزاهي شذىً مَلابه

كمبردج   **فخري أبو السعود**

حيرة

إن روحي في الفضا حيرى تحوم   مثل طير ضل عن سرب الطيور
واشتهى الشمس فأخفتها الغيوم   واشتهى الريح فضنت بالمسير
فانثنى تعلو جناحيه الهموم   ودعا يشكو ويبكي في دعاه

***

إن روحي ترتقي هذا الفضاء   وهو ليل مظلم رطب فسيح
فيحيط القدس قلبي بالهناء   وأحس الشك في صدري يصيح
وظلام الجو للشك وعاء   وانفساح الأفق للروح صلاه

***

هذه شتى انفعالات النفوس   كرياح البحر تأتي عاصفات
جافلات في عَرا قلبي تجوس   دون وعي منه بل دون التفات
اي وعى عند تهتان الكؤوس   للذى استعبدت الراح هواه ؟

***

ما أرى جرما ولا قبحاً بدا   لم يكن يغمر نفسي بعضه
أو جمالا أو حنانًا أو هدى   لم يكن يغمر نفسي فيضه
سكن العيش فؤادي والرّدى   وفؤادي بهما يقضي مناه !

***

عقد الكون بنفسي الاتصال   فكأن الكون مني قطعةٌ
وجرى الدهر عليه كخيال   هو مما في جفاني صورةٌ
ما احتياجي للمطايا والرحال !   انني للدهر والكون نواه !

---

(١) في سياق القصيدة محاكاة لطريقة ترديد المعنى بصدى الألفاظ المتبعة في بعض الأشعار الغربية

(٢) مسائح : ذوائب   (٣) الإبابه : مكثه

(٤) تغدق : تبتل بالماء

الظلام الوحش حولى لا يريد عن محيا الحق القاء النقاب
فهو يغرينى به كى أستزيد ثم يمهيه أمامى كالسراب
ليتنى ألقى غشاء من حديد دامج الليل على عينى رماه !

***

لست أخشى الحق بل أخشى الوجود
وأخاف الزهر يبكى للنسيم
وأخاف البحر هدار الوعيد وأخاف الطير يشدو كاليتيم
وأخاف الغصن يذوى كالشهيد وتلاشيه المنايا فى صباه

***

اننى أخشى بنفسى الانفراد ثم أخشى الناس أن تُجمعَ بى
كم يصيح الدمع فى ليل الفؤاد كهزيم عاصف مضطربِ !
انما الحيرة فى فهم المراد مثل داء يجهل الطب دواه

***

أنا من شئ الى شئ أفرْ حول نفسى مثل مخمور أدورْ
عقرب وسط لهيب مستعرْ لا يرى فيه سبيلا للعبورْ !!
كُتب الهم على لوح القدرْ يوم حار الفهم فى معنى الحياه

***

هتفت عيناى بى تشتكيان قسوة الظلمة : خوفا وعمى
وهما من كل نور تخشيان ما يوارى : حرَقًا أو عـدَمًا
الحياة النور والنور الأمان والظلام الخوف والخوف الحياه !

***

انظرا هذا شعاع الحق لاح كشهاب يرتقى عرش السماء
كلما جئناه عن قرب أشاح فهو كالشمس التى تطوى الفضاء
يتبع الطفل خطاها فى الصباح علها تقرب... ماجدوى خطاه؟

***

يا شعاع الحق فيماذا الفرار أترى لقياك تُعمى بصرى ؟
أنت للقلب ملاذ ومنار فأَنِر قلبى وأطفئ نظرى
إن يكن لابدمن حمل الستار لن تضىء العين للقلب عماه

باريس حسن عارف

رسالة

رسالة كفتيت المسك عاطرةٌ بكل مايشتهيه القلب من وطرِ
ما إن تناولتُها حتى أحاط بها قلبى ولم يكُ يدرى سرها نظرى
ورفّ فى جنباتِ الصدر مبتهجًا كالطير عادت اليه الأمُّ بالثمر
و بثّها الدم فى الأحشاء فانتعشت كالزهرِ جاد رُباه هاطل المطر

***

مُنى الفؤاد الذى انضمت جوانحه على لهيب من الآلام مستعر
أهفو اليك وما أندى على كبدى
من أن أناديك فى الآصال والبُكَرَ
دعنى أُذِعْ بعض ما تخفيه جانحتى
ففى الجوانح حب ثائر الشرر
وأصطفيك بشعر أنت مُلهِمهُ عفّ عن اللغو والاسفاف والهذر
فمنك أنهل شعرى ثم أبعثه إليك عقداً بديع النظم والدُّررِ
أوْلا فإن حيائى منك يمنعنى من أن أبوح بحب عنك مستتر

فريد عين شوكه

زهرة

زهرة فى الروض تزهو فى ثياب المترفين
جلست تستقبل الصبح على العرش المكين

***

أُهديت من كل زهر عاطـــــر أنفسُه
وحباها الله خدًّا ناعمـا ملمسُه

***

فهى ريحان وورد وهى ريا الياسمين
وهى من مسك وكل الزهر من ماء وطين

***

زينت زنداً جميلا بسوار الزَّردِ
تعسل الخدين منها بمياه البرَدِ

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بمناسبة ذكراه الثانية

حافظ بك ابراهيم

الشاعر الوفى لمصر

بقلم السيد احمد العجان

حافظ شاعر النيل متعدد النواحى فى الدراسات ، متشعب المباحث فى التناول ، والتحليل الدقيق إنما يكشف كل ناحية ويبين كل مبحث ، وليس الألمام بعبقريته ونبوغه وشاعريته وخياله مما تأتى عليه هذه العجالة ، ولكنا سنقتصر على ناحية واحدة هى وفاؤه للنيل وأهله ، وكيف كان هذا الوفاء دفيناً فى نفسه ، مستقراً فى جنانه العامر ، يتحرك به لسانه فى كل مناسبة ، ويجرى به قلمه كلما عنت فرصة

والذى نلاحظه فى شعر حافظ هو ما يحملنا على اليقين بصدق وفائه وإخلاصه ، ومحبته لمصر وأهلها ؛ فهو إذا انتقد كان لاذع النقد قويه ، يظهر المثالب ، ويعدد المساوئ ، ويود لو نتخلص منها ، ونحيد عنها . وقد يكون فى النقد المرّ اللاذع شكاً فى الوفاء والأخلاص لو أنه ضن بالنصيحة وبخل بالأرشاد . ولكن حافظاً حين يهزه الألم من حالة مصر حتى ليود الخلاص من الدنيا ، والفرار من الحياة ، وحين يسخط شديد السخط عليهم ؛ لم يكن لكراهته لهم ، وبغضه إياهم ، وإنما لأنه يرجو لهم الخير الشامل الغامر ، والرقى الدائم السديد ، يحدثنا حافظ عن ذلك بأجلى عبارة وأوضح أسلوب

أنا لولا أن لى من أمتى ... خاذلاً ؛ مابت أشكو النوبا
أمة قد فتّ فى ساعدها ... بغضها الأهل ، وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا ... وتفدّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالى لعبا

ومما يقوى لدينا الأدلة على وفاء حافظ للنيل ، وحبه لهذا الشعب أنه لم يكن يقنع بالتحدث عن الغرض الواحد عدة مرات بهذا الأسلوب العالى الرصين ، كالذى نراه فى وصفه للحالة الداخلية وموقف بعضنا من بعض ، وموقف الصحافة منا ومن الوزارة ، ثم موقفنا من دار المندوب البريطانى ، وبيانه أن طريق الرقى هى العلم ، وأنه الوسيلة فى النجاح والظفر ، وهو من وراء ذلك يضع أمله قوياً فى الشباب ، ويكثر من ندائه لهم ، ولا يزال يستنهض الهمم ويضرب المثل باليابان كما سنوضح ذلك من شعره

إن إخلاص المخلص لا يؤدى ثمرته إذا لم تتوفر فيه عناصر ثلاثة : نقد قوى الهجة للمثالب حتى يحس المنتقد ضعفه ، ويقف على عيوبه ؛ فيجتنب الغرور ويقترب من الفضيلة ؛ ونصح سديد الفكرة تظهر فيه سبل الخير ويبين منه طريق الهدى ؛ كى يسلكه المنصوح له دون عثار أو ضلالة ؛ وأمل فى الله والشعب كبير رجاء التوفيق وابتغاء الاصلاح .

وهذه العناصر الثلاثة قد ظهرت بوضوح فى شعر حافظ ، وكان لكل منها مظاهره العدة ، وأثوابه المتنوعة . وسنتناول كلا منها على حدة :

١ — نقده : فى الشعر السابق وصف حافظ ما نحن عليه من كراهة الأهل وحب الغرباء ، وأننا كرماء لضيوفنا ، نهوى الألقاب فى غير العلا ، ونعشق الرتب . ويحدثنا عن حالتنا النفسية بلغة سليمة مستقيمة فنحن :

ألفنا الخمول ويا ليتنا ... ألفنا الخمول ولم نكذب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويَصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم ... ويكرم فينا الجهول الغبى

ونراه يحدثنا عما هو واقع بيننا من الفخر بالمال الموروث أو بالرتب ، ثم تأخذه حمية الغضب ؛ فيقول إنما الفخر بالعلم والاختراع ، وبالفضل والأدب :

بَسَمت للشمس لما ... سطعت فوق الخميله
وبدت فى الروض تزهو ... مثل حسناء جميله

***

فاسلمى يا زهرة الوا ... دى من الأيدى العوادى
وانبذى الماء على الأرْ ... ض الى ماء الغوادى

محمد مصطفى حموده

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا بمال غير مكتسب
فقل للفاخرين أما لهذا الفخر من سبب
أرونى بينكم رجلاً ركيناً واضح الحسب
أرونى نصف مخترع أرونى ربع محتسب
أرونى نادياً حفلاً بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب

ولقد عاب علينا اعتبارنا للمظاهر ، وانخداعنا بالملابس :

إن قومى تروقهم جدة الثو ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب باهر لونه وبين حذاء

وضعف الرجولة داء كمين فى بعض المصريين كشف عنه حافظ ، وأبان طوائف الناس بين مهل مع المهللين لايعرف له غرضاً ، وبين ساع إلى دار المندوب البريطانى ، أو متردد على أبواب الحكام

فهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وداء آخر أشد فتكاً ، وأقوى بطشاً ، وهو الصحف التى تطن طنين الذباب ، وما هى إلا حصائد ألسن تجر إلى الويلات وأنها أيبست مابيننا فى الأخذ والرد ، فصحف ترى رأى المندوب البريطانى ، وأخرى تعد هذا جرماً وإثماً كبيراً ، والوزارة من وراء ذلك فى رغد ونعيم

وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب

وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب
حصائد ألسن جرت إلى الويلات والحرب

وأرى الصحائف أيبست ما بيننا أخذاً ورداً
هذا يرى رأى العميد وذا يعدّ عليه عدّا
وأرى الوزارة تجتنى من مرّ هذا العيش شهدا

ومصابنا الذى يفوق كل مصاب ، وداؤنا الذى يعلو على كل داء ، هو تزلفنا لدار المندوب البريطانى وهو البعيد عنا لغة ، وجنساً ، وديناً ، والأجنبى عنا مهبطاً وميلاداً ، والذى لا نلتقى وإياه إلا فى وادى بؤسنا ودار نعيمه ، والذى لا يجمعنا وإياه آلام ولا آمال . وحافظ يبرئ المندوب من كل ذنب ، ويخليه من اللام فسبيله أن يستبد ، أما نحن فشأننا أن نستعد

وقالوا دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياماً ولما نفق فشمر للسعى والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب

أنا لا ألوم المستشار (م) إذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد (م) وشأننا أن نستعدا

٢ — نصحه وإرشاده : ولكن حافظاً لم تفل من عزمه هذه العيوب ، ولم تثن همته تلك المثالب ، ولم تقعد به هذه المخازى عن إسداء النصيحة وحث الهمم ، وضرب اليابان مثلاً ، وجعلها قبلة

فهبوا من مراقدكم فان الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابان جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً وهمنا بابنة العنب

أيجمل من بعد هذا وذاك بأن نستكين وأن نجمدا
وها أمة الصفر قد مهدت لنا النهج فاستبقوا الموردا

ثم نراه لا يرسل النصيحة خلواً من كل سند ، بل يشفعها بتلقين عظمة الآباء ، والأيحاء بعزة الماضى ، ومجد التاريخ ، ويرى أن الزمان قلب ، والفلك دوار ، وأنه لا علينا أن نهزم اليوم إذا كنا نتوثب للغد ، وأن نبتلى فى الحاضر كى نتأهب للمستقبل

فدنياك يا نيل لا تجزعن إذا اليوم ولى فراقب غدا
فلا ييؤسنك قول العداة وإن كان قيلاً كحز المدى
أتودع فيك كنوز العلوم ويمشى لك الغرب مسترفدا
ويقضى عليك قضاة الضلال طوال الليالى بأن ترقدا

ونراه لاينسى هذا التلقين والأيحاء والاعتداد بالماضى فى كل مناسبة وفرصة كما فى وداعه لصديقيه محمد بك بدر ، وأحمد بدر عند سفرهما الى بلاد الانجليز

سيرا أبا بدرى سماء العلا واستقبلا التم ولا تأفلا
سيرا الى مهد العلوم التى كانت لنا ثم ازدهاها البلى
وخبرا الغرب وأبناءه بأننا نحن الرجال الأولى

لئن غدا الدهر بنا مدبرا … لابد للمدبر أن يقبلا

ويختم حافظ نصيحته بالوسيلة الأولى للنجاح والظفر ، والتغلب على الصعاب ألا وهى العلم ، ويرى أن انشاء الكتاتيب لا يغنى عن العلم الصحيح ، وأن ألف كتاب لا تعدل مدرسة عالية ، أو جامعة منظمة تضم بين جنبيها رجالاً أكفاء يتعهدون الناس بالتعليم ، والمداواة ، والسهر على الأمن والأرواح ، والقضاء فيهم ، والاشراف على موارد المياه وتصريفها ، ورصد الافلاك والكواكب ، والبحث عن بقايا القدماء ، ومخلفات الآباء بالحفر والتنقيب

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد … ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا … أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبو الأجير أو الحراث قد بلغا … حد الكتابة فى صحف وفى كتب
من المداوى اذا ما علة عرضت ؟
من المدافع عن عرض وعن نشب ؟
ومن يروض مياه النيل ان جمحت
وأنذرت مصر بالويلات والحرب ؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم ؟ … حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
. . . .
ومن يميط ستار الجهل ان طمست … معالم القصد بين الشك والريب
فمالكم أيها الأقوام جامعة … ألا بجامعة موصولة السبب

٣ — رجاؤه فى تحقيق هذه الآمال : ثم إن حافظا — رحمه الله — كان عامر الفؤاد بالرجاء فى الاصلاح ، قوى الايمان بالتوفيق ، يود لو هيأ الله لمصر صلاحا وللنيل سعادة . وقد وضع أمله بين يدى الشباب ونابتة العصر ، ولاغرو فالشباب أقوى من يحمل الأمانة ، ويؤدى الرسالة تحت إرشاد الشيوخ ، وموعظة الكهول .

يامصر هل بعد هذا اليأس متسع
يجرى الرجاء به فى كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا … كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكى على بلد سال النضار به … للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه … كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب

ثم هو فى ندائه للشباب يضع آلام الوطن بين يديه ، ويثير عواطفهم لحبه والأخلاص له ، بأسلوب أخاذ بمجامع القلب والنفس جميعاً .

وهو رحمه الله حين يأمل الخير للنيل وواديه ، ويرجو له أن تحقق آماله وأمانيه ، وألا تحلو موارده إلا للمخلصين من بنيه ؛ تهيج به الآلام ، وتحرك كوامن غيظه ودفين حيرته

متى أرى النيل لا تحلو موارده … لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت … جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كأننى عند ذكرى ما ألم بها … قرم تردد بين الموت والهرب

هذا حافظ الشاعر الوفى لأهله ووطنه ، والمخلص لشعبه وأمته ، مر عامان على وفاته ، دون أن يذكره شعبه أو يحيى ذكراه ؛ لولا أدبه الخالد الذى يأبى الركود ويعشق الحياة

قد أضاعوك غير أن الذى أظـ … ـهرت من عبقرية لا يضيع

فرحمه الله وجزاه باخلاصه ، وعوضه عن نكران شعبه حياة أدبه

السيد احمد العجاني

من الأدب الهندي

محمـــــد اقبال

للدكتور عبـــد الوهاب عزام

قدمت فى الرسالة نبذاً من كتاب إقبال الذى سماه « أسرار خودى » فعرف القارىء رأى الشاعر فيما سماه « الذاتية » ورأى كيف ضرب مثلاً من الطائر الظمآن وقطعة الماس ، ومن الفحم والماس .

وفى هذا المقال يرى القارىء كلتين من الكتاب نفسه : الأولى قصة الشيخ والبرهمن ، ونهر الكنج وجبل هماله ، والثانية « الوقت سيف » . وإذا رأى القارىء غموضاً فى بعض الجمل فمرجع هذا أن كثيراً من المعانى والعبارات غير مألوف فى العربية ، وأن الشاعر الكبير يعرض آراء من فلسفته الخاصة ، لم تذلل لها اللغة التى كتب بها . وهو يشكو فى كلامه عن الوقت من أن الألفاظ تضيق بالمعانى التى يحسها .

وكان أهون علىّ أن أكتب فى موضوعات أخرى هى أقرب الى القراء ، لولا أنى أود أن أبين جهد الطاقة عن جوانب مجهولة من أدبنا الشرقى ، ولاسيما فلسفة شاعر الاسلام الأكبر محمد اقبال

ويرى القارىء أنى أحاول بالسجع تدارك بعض مافات من الوزن والقافية .

— ١ —

« قصة الشيخ ، البرهمن ، وحديث كنكا وهماله فى بيان أن حياة الأمة تستمر بالمحافظة على سننها »

كان فى بنارس برهمند من الكبراء ، غواص فى بحر الحياة والفناء . ملك زمام الحكمة ، وشحذ فى الطلب الهمة ، متوقد الذهن ، يتحرى الدقائق ، ويحلّق فوق الثريا فى طلب الحقائق . أوغل فى لوح الجوّ كالعنقاء ، واضطربت الشمس والقمر فى شعلة فكره الوضاء . مُنى زماناً بالحرمان والحسرة ، لم تصب كأسه قطرة من الحكمة ، وألقى شبكته فى رياض المعرفة ، فلم تر طائر المعنى عين الشبكة ، وأدمى مخالب الفكر المجهود ، ولم يحل عقدة الوجود ، نطقت بعجزه آهاته ، وصورت حيرة قلبه قسماته .

ذهب يوماً الى شيخ عظيم ، ذى قلب سليم ، فأصغى الشيخ لحديثه حتى عرف مكنون صدره ، ثم قال : أيها الطائف فى الأفلاك ! اتخذ فى الأرض مثواك . اغتربت عن المرج والصحراء فجاز فكرك آفاق السماء . ياطاوى السماء اسكن الى الأرض قليلاً ، ودع حقائق النجوم حيناً . لا أقول لك اهجر أصنامك ، أنت كافر فكن جديراً بزنارك . ياأميناً على التهذيب القديم ، لاتحقر دين آبائك الأولين . فان فى الألفة حياة الأمة ، والكفر كذلك من أسباب الألفة . أنت ناقص حتى فى الكفر ، فلست أهلاً للطواف فى حرم القلب . لقد بعدنا عن جادة التسليم ، بعدتَ عن آذر وبعدتُ عن ابراهيم . قَيْسُنا ليس هائماً بالمحمل ، وهو فى جنون العشق لم يكمل [(١)] ، ماجدوى الخيال الذى يطوى السماء ، إن كان شمع الذاتية الى انطفاء .

قال نهر الكنج يوما لجبل هماله وهو يجرى فى سفحه : أيها المتوّج بالبَرَد من فجر الخليقة ، والمتخذ زناراً من الأنهار الجارية . جعلك الله نجىّ السماء ، ولكن حرمك التبختر فى العراء ، ماغناء هذا الوقار والرسوخ والرفعة ، وقد سلبت رجلك الحياة والحركة؟ الحياة سعى دائم كالموج ، وجوده من الاضطراب المتصل .

فلما سمع الجبل تعيير النهر ، أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال : يامن اتخذتُ صفحته مرآتى ، وأكننت مئات من مثله فى صدرى إن هذا التبختر زينة الفناء ، من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء ، قد غفلت عن مقامك ، ونخرت بهلاكك ، يا وليد الفلك الرفيع [(٢)] ، خير منك الساحل الوضيع ، جعلت نفسك قربان المحيط ، ونثرت جوهر روحك لقاطع الطريق ، كن وَرداً فى بستانك ، ولا تذهب وراء قاطف الورد لتنثر عبيرك ، ان الحياة أن تنمو فى مكانك ، وأن نقطف الورد من بستانك ، خلت القرون وأنا فى طينتى ثابت القدم ، وتحسبنى الى الغاية لم أتقدم ، كلا قد عظمت حتى بلغت السماء ، واستراحت على سفحى الجوزاء ، وقد ضل وجودك فى البحر الخضم ، وصارت ذروتى مسجَد الأنجم عينى بأسرار الفلك بصيرة ، وأذنى بطيرانه خبيرة ، احترقتُ بنار السعى الدائم ، فجمعت فى صدرى الجواهر « فى صدرى حجارة وفى الحجارة نار ، ليس للماء سبيل الى هذه النار » [(٣)] ان كنت

(١) اشارة الى قصة مجنون ليلى

(٢) يعتقد الهنود أن الكنج يأتى من السماء

(٣) اقتباس من شعر مولانا جلال الدين الرومى

قطرة فلا ترق نفسك بيدك ، وجاهد اللجة وحارب اليم لحياتك ، كن جوهراً لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء ، أو اسمُ بنفسك وأسرع التسيار ، وكن سحابا يرمى البروق ويمطر البحار ، ليستجدى البحر احسانك ، ويشكو ضيقه بانعامك ، ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويطرح نفسه أمام قدميك .

— ٢ —

أتبع الشاعر الفصل السابق بفصل عنوانه « نصيحة أمير نجاة النقشبندى المعروف ببابا الصحراوى ، التى كتبها لمسلمى الهند » وهو فصل ممتع بلغ فيه الكاتب من سموّ الشعر ، وعظمة النفس مبلغه . ثم أتبعه بكلمة عنوانها « الوقت سيف » وهذه ترجمتها : —.

سقى الله ثرى الشافعى ، كما استقى الناس من فيضه ، لقد اقتطف فكره كوكبا من السماء ، حين سمى الوقت سيفاً ذا مضاء ، ماذا أقول فى سر هذا السيف الذى يفيض بالحياة ماؤه ؟ ان صاحبه فوق الخوف والرجاء ، ويده أنصع من يد الكليم البيضاء ، يلين الحجر لضربته ، وييبس البحر لهيبته ، كان هذا السيف فى يد موسى فعلا أمره على التدبير ، شق صدر بحر القلزم ، فانقلب برّاً ذلك العيلم ، وكان فى كف حيدر فاتح خيبر ، ذلك السيف العظيم الأثر .

إن البصير يرى دوران السماء ، ويدرك تقلب الليل والنهار فى الفضاء ، انظر ياأسير الأمس والغد ، تر فى قلبك عالما لا يحد ، زرعت بذور الظلام فى طينتك ، وتوهمت الوقت خطاً بجهلك ، ثم قست طول الزمان بمعيار الليل والنهار ، واتخذت هذا الخيط زنارا ، فملت الى الأصنام واتخذت الباطل متجرا ، كنت كيمياء فانقلبت قبضة طين ، وولدت الحق ثم صرت الباطل المهين .

إن تكن مسلماً فتحرَّر من هذا الزنار ، وكن شمعاً فى محافل الأحرار . لقد جهلت أصل الزمان فجهلت الحياة الخالدة ، ياأسيراً فى الليل والنهار مثواه ، تعرف رمز الوقت من « لى مع الله »(١) كل شىء من سير الوقت ظاهر ، والحياة سر من أسرار الوقت الباهر ، ليس الوقت من دوران الشمس العلية ، هو أبدىّ وهى ليست أبدية ، الوقت هو السرور والغم ، والعيد والمأتم ، وهو سر الضياء ، فى القمر وذُكاء ، قد بسطتَ الوقت كالمكان ، ثم فرقت بين الأمس والغد فى الحسبان ، يامن جفلت كالشذى من بستانك ، وبنيت سجنك بيدك ! إن وقتنا الذى لا أول له ولا آخر ، ينبت من بستان الضمير الناضر ، الحياة من الدهر والدهر من الحياة ، وقد قال الرسول لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله .

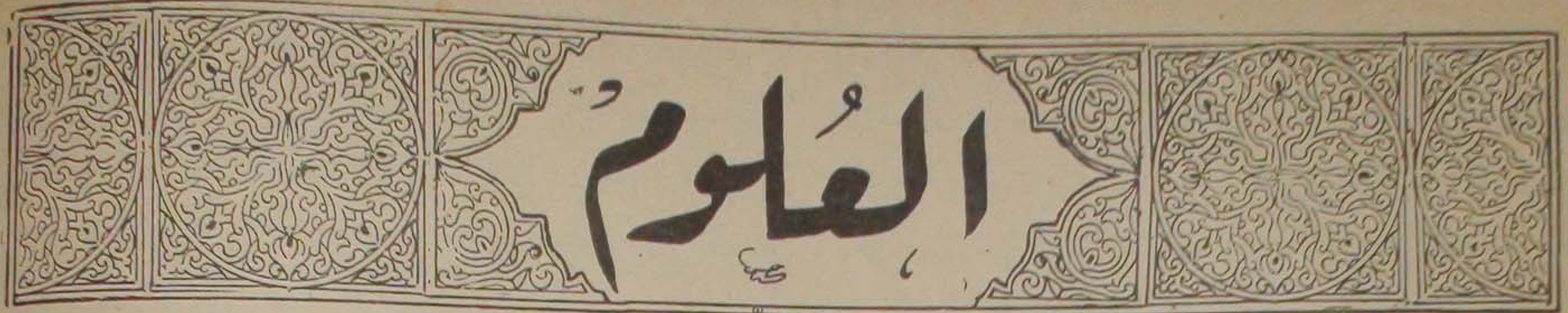
استمع نكتة تضىء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحرّ :
العبد ضالّ فى الليل والنهار ، والزمان فى قلب الحر ضالّ . العبد ينسج من الأيام كفنه ، ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحرّ يخلع نفسه من الطين ، ثم ينسج على الزمان عزمه المتين . العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح فى الهواء ، وصدر الحرّ الهمام ، قفس لطائر الأيام ، فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وخواطره تكرار قاتل ، مقامه من الخمود واحد ، وصوته بالليل والنهار راكد . والحر كل حين خلاّق ، يسكب وتره نغمة مجددة فى الآفاق ، فطرته لا تحتمل التكرار ، وليس طريقه حلقة البركار ، العبد فى سلاسل من أيامه ، والقضاء والقدر وِرد لسانه . وهمة الحر مشيرة على القضاء ، تصوّر يده الحادثات كما تشاء ، الماضى والآتى ماثلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه .

هذا كلام برىء من الصوت والصدى ، يأبى على الادراك أبدا . أقول ولفظى من المعنى يخجل ، ومعناى من ذلك اللفظ أجلّ ، يموت المعنى الحى فى هذه الحروف الجامدة ، وتخمد ناره بأنفاسك الباردة . ان فى القلب نكتة الغيبة والحضور ، وإن فى القلب رمز الأيام والمرور ، مزهر الوقت ذو نغمة صامتة ، فغُص فى قلبك لتدرك أسراره الخافتة .

نضَّر الله عهداً كان سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثان ، فبذرنا الدين فى أرض القلوب ، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب ، وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه الأرض سجودنا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوة الحق بين الخلق ، يامن أترعت كأسه الخمر المعتقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرقة ، وملأه الكبر والغرور والأثرة ، فعيَّرنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك ، زينة المحافل ، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل ، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد ، ينجلى بكل أمل بعيد وربت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عُبَّاد الحق ببلائنا ، ودوّى العالم بتكبيرنا ،

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) اشارة الى الحديث الذى يرويه الصوفية « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه نبى مرسل ولا ملك مقرب » .



أصل الأرض وماهية تكوينها

بقلم نعيم على راغب

اختلفت الآراء وتضاربت ، ثم كثر الحدس والتخمين فى أصل الأرض من قديم الزمان ، واستمر الحال كذلك الى أن جاء القرن التاسع عشر يحمل معه مخترعات جليلة الشأن ، عظيمة الفائدة ، نخص منها بالذكر المنظار المقرب أو التلسكوب ، ثم آلات تحليل الطيف الضوئى ، فأمكن تكوين رأى لايزال حتى الآن غير محكم عن أصل تكوين الأرض .

وخلاصة المأخوذ به حتى الآن هو أن الأرض التى نعيش عليها جزء من المجموعة الشمسية التى تتركب من عدة أجرام سماوية تتوسطها الشمس ، وهى ثمانية كواكب سيارة Plauets مرتبة حسب قربها من الشمس : (عطارد . الزهرة . الأرض . المريخ . المشترى . زحل . أورانوس . نبتون) . كذلك من ٦٣٥ كوكباً صغيراً سياراً بين المريخ والمشترى ، وكذلك التوابع Satelites وهى أجرام سماوية صغيرة تدور حول الكواكب السيارة (كالقمر بالنسبة الى الأرض) ؛ هذا غير عدد لا يحصى من أجرام سماوية صغيرة اسمها الشهب Meteors تدور على غير هدى .

ونحن اذا رجعنا الآن الى تكوين الأرض من هذه المجموعة ، وجدنا أن الآراء متفقة على أنها كانت قبل انفصالها عبارة عن كتلة واحدة متماسكة ، ثم انفصلت الى أجزاء صغيرة كانت الأرض أحدها . واليك بيان ذلك :

كانت المجموعة الشمسية فى البداية سديما ، (وهو جسم يُرى بالعين المجردة كأنه سحابة بيضاء ، ولكنه فى الحقيقة جسم غازى شديد الحرارة جداً ، له مركز أشد صلابة ولمعاناً من باقى جسمه ، وهو بيضاوى الشكل) ، انخفضت درجة حرارته بعامل من العوامل فانفصلت أطرافه على شكل حلقات دائرية ، واستمرت بعد عملية الانفصال تدور حوله فى نفس الاتجاه الذى كان يدور فيه ، فتكونت من هذه الحلقات الكواكب السيارة ، وكان أولها فى التكوين أبعدها عن الشمس ، وهو نبتون الواقع على طرف المجموعة الشمسية ؛ وكان آخرها أقربها اليها وهو عطارد . وتعرف هذه النظرية بالنظرية السديمية Nebuler Theory ، وهى النظرية التى قال بها العالم الفرنسى الشهير Laplas فى أواخر القرن الثامن عشر .

حار العلماء فى تفسير منشأ حرارة السديم ولم يتمكنوا من ايجاد تعليل معقول يستسيغه العقل فسكتوا على مضض حتى تقدم سير نورمان لوكيار Sir Norman Lockyer بنظرية الشهب Meteoric Theory وخلاصتها أن النيازك العديدة التى تسبح فى الفضاء إذا ما تقاربت نشأ عن اتحادها واحتكاكها درجة حرارة تبدأ

وعمرت كعبات من ترابنا . وأنزل الحق كلمة « اقرأ » فينا ، ثم قسم رزقه بأيدينا . فان يكن ذهب منا الخاتم والتاج ، فلا تحقر ذلك الفقير المحتاج . ان نكن بزعمك مفسدين ، وبالأفكار العتيقة مغرمين . فنحن لا نزال الأحرار أنصار التوحيد ، قوامين على العالمين والله شهيد .

فرغنا من غم اليوم والغد ، وحالفنا الله الأحد ، فنحن فى قلب الحق سر مكنون ، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون ، لا يزال نورنا فى الشمس والقمر مصونا ، ولا يزال سحابنا بالبرق مشحوناً

إن ذات المسلم مرآة الحق ، وإن وجود المسلم من آيات الحق .

عبد الوهاب عزام

قليلة المقدار لكنها تزداد كلما ازداد مقدار تقاربها من بعضها بفعل الجاذبية نحو المركز ، وهكذا إلى أن تصل إلى حد تتحول معه النيازك إلى مادة غازية Gassic . ثم يأتى وقت بعد ذلك تزيد فيه الحرارة المتشععة من الشهب عن الحرارة الناشئة من الاحتكاك فتتكاثف هذه الغازات ثانية . وتأخذ درجة حرارة السديم فى الانخفاض تبعاً لذلك . وتكون أبعد الأماكن عن المركز أولاها فى هذه العملية . ومن هنا نعلم أن أبعد السيارات عن مركز المجموعة أقدمها فى التكوين كما سبق ذكره .

استمرت النظرية السديمية مأخوذاً بها طول القرن التاسع عشر غير أنه كان فيها بعض نقط غامضة احتاجت إلى إيضاح كثير : من ذلك مثلاً أن هذه النيازك التى قيل إنها تكون السديم صغيرة الحجم إلى حد كبير تسير فى الفضاء على غير هدى وبسرعة عظيمة . ومن الصعوبة أن نتصور القوة الجبارة التى سببت اتحادها بعضها ببعض . وبغير هذه القوة لا يمكن بأى حال من الأحوال تفسير النظرية السديمية . ومن الاعتراضات الأخرى التى قامت فى وجه هذه النظرية حقيقة جغرافية ثابتة ، وهى أن توابع كل من أورانوس ونبتون تدور حولها من الشرق إلى الغرب على عكس باقى اجزاء المجموعة الشمسية .

وقد تقدم فى القرن العشرين بعض علماء الانجليز والأمريكان بنظرية عن أصل تكوين الأرض تعرف بنظرية المد Tide Theory خلاصتها أن تكون الكواكب السيارة وغيرها من المجموعة الشمسية قد نشأ عن اقتراب نجم كبير من سديم الشمس فى أوقات مختلفة . فنشأ عن اقترابه أن جذب اليه جزءاً من كتلة السديم انفصل منه بقوة هذه الجاذبية .

ولا تختلف النظرية الأخيرة وهى نظرية المد عن النظرية السديمية فى شئ إلا فى تعليل انفصال الحلقات المكونة للمجموعة الشمسية عن جسم السديم الأصلى .

وهناك اختلاف بَيّن بين قولنا هذا وبين من يقول إن الأرض أصلها جزء من الشمس لأن القول الأخير غير صحيح إذ أن الأرض والشمس جزءان من سديم واحد أو كتلة واحدة وليست جزءاً من كل بالنسبة للثانية .

باطن الأرض :

كانت الأرض كما قلنا جزءاً من السديم الشمسى وكانت حرارتها فى البداية شديدة جداً ثم انخفضت وأخذت فى القلة تدريجاً بفعل الاشعاع فبردت قشرتها الظاهرية شيئاً فشيئاً حتى وصلت لحالة الصلابة ، ثم تجعدت هذه القشرة تبعاً لبرودة الأجزاء الباطنية وأخذت فى التقلص فتكونت فيها منخفضات ملأتها الأبخرة المتكاثفة (الماء) وأخذت معالم الحياة تظهر شيئاً فشيئاً وكان آخر هذه المعالم هو الانسان . إلا أن باطن الأرض ظل مرتفع الحرارة . تدل على ذلك ظواهر طبيعية عديدة :

١ — تزيد درجة الحرارة بمعدل درجة واحدة فهرنهيت لكل عمق مقداره ٥٦ قدماً

٢ — سخونة المياه التى تخرج من الينابيع الساخنة . وقد وجد أن درجة حرارة الماء الخارج من نافورات ايسلنده ٢٦١ ف

٣ — خروج المواد منصهرة من البراكين .

ولقد أثارت الظاهرة الأولى اهتمام العلماء وكانت سبباً فى اختلافات كثيرة وقعت بينهم فى القرن التاسع عشر ، لأنه اذا كانت زيادة درجة واحدة فهرنهيت لكل ٥٦ قدماً بعد الخمسين قدماً الأولى صحيحاً واستمرت هذه الزيادة باطراد لوجب أن تكون حرارة الباطن ١٥٠٠ درجة حرارة مئوية على عمق ٢٨ ميلا أو على عمق $\frac{١}{١٤٢}$ من نصف قطر الأرض . وهذه الدرجة تذوب عندها أشد العناصر صلابة . فوجب على هذه الحال أن يكون سمك القشرة الأرضية Hot Geysers الصغرى غايته ٢٨ ميلا وفيما يلى ذلك يكون الباطن منصهراً .

غير أنه ثبت فى القرن الحالى أن باطن الأرض صلب ، وأن الأرض تتكون من طبقتين متميزتين عن بعضهما :

الأولى : طبقة سطحية تتكون من صخور قليلة الكثافة يطلق عليها اسم Lithosphere

الثانية : طبقة معدنية عظيمة الكثافة تسمى Barryspher وأن الطبقة السطحية تحتوى بالقرب من الظاهرات على جيوب مملوءة بالمواد المنصهرة ، وهى ما تعرف بالحمم Magma ومنها تفيض البراكين عند ثورانها . وهناك أدلة تثبت أن باطن الأرض أصلب منها :

(١) كلما تعمقنا فى باطن الأرض زاد الضغط بنسبة العمق الذى نصل اليه ، ومعنى ذلك أن الطبقات على عمق ١٠٠ متر مثلا تقع تحت ضغط يساوى عمود الهواء وثقل الطبقات التى تعلوها . ولذا فان المواد التى توجد على هذا العمق تحتاج الى درجة حرارة أكثر بكثير من الدرجة التى تنصهر عندها نفس المواد اذا ماوجدت على سطح الأرض .

(٢) لما كانت كثافة الأرض ٥,٦ وكثافة السطح الخارجى ٢,٥ وجب أن تكون كثافة الباطن أعلى من ذلك بكثير حتى يكون الناتج ٥,٦

(٣) تزيد سرعة الموجة الزلزاليــة عند مرورها فى باطن الأرض عنها على السطح ، فقد لوحظ أنه بينما تسير الموجة بسرعة ١,٨٦ ميلاً فى الثانية على السطح ، فانها تسير بسرعة ٥,٠٥ أميال فى الثانيــة فى باطن الأرض .

(٤) لو كان باطن الأرض سائلا لوجب أن يتأثر بالمد والجزر ، فيظهر ارتفاع فى القشرة الأرضية من جهة المد ، وانخفاض فى الجهة الأخرى .

(٥) قد ثبت أن النشاط الراديومى Radio Activity محصور فى دائرة ضيقة غاية قطرها ٤٥ ميلاً من السطح الخارجى . ولو كانت الصخور التى دون هـذا العمق ، تحتوى على راديوم لازدادت كمية النشاط الراديومى . ولما كانت المواد الحديدية التركيب من المواد القليلة الخاليــة من هذا النشاط . يثبت لنا من ذلك أن باطن الأرض يتكون من مادة حديدية عظيمة الكثافة ، وهذا يتفق مع النظرية الشهبية التى قال بها السير نورمان لو كيار . كما يتفق مع الحقيقة الثابتة فى النقطة الثالثة .

انتهينا الآن من ماهيـــة باطن الأرض ، وسنبحث فى مقال آخر فى ظواهر حرارة باطن الأرض ، فنتكلم عن البراكين وظواهرها وأسبابها . ثم نبين التضارب الحادث فى تعريفها جغرافياً ، والتغليط العلمى فى شرح ظواهرها وأسبابها ؟

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

من التاريخ

ذكرى زينب

بقلم مهدى الجم الطرابلسى

أقبلت عليه متهادية، تحمل أذيالها الجوارى السود، وجلست قربه وقالت بصوتها العذب: عِمْ صباحاً أيها الأمير. فقال: عمى صباحاً أيتها الأميرة. قالت: مالى أراك طويل التأمل، عميق التفكير، مؤرق الليل، محزون النهار؟ قال: آه يازينب! كيف لا يأرق العربى ويموت أرقاً، ويحزن ويذوب حزناً، إذا استُلب الكرامة، وفقد الحرية؟؟

حنانيك يا زينب! إنى أكاد أموت هما وكمداً! إنى أريد أن أستقل استقلالاً تاماً! إنى أريد أن أملك زمام المشرق والمغرب!

إلى متى أنا خاضع للروم؟ إنى أخاف هؤلاء اللئام يازينب، وأرهب غدرهم، فهم لا يرعون ذمة، ولا يوفون عهداً، ولا يصدقون قولاً. إنى أشفق أن يمر بنا حينٌ نذل فيه، ونُساق للهوان والصغار سوق الابل!

إن الحرية يا زينب لا تُنال بمعاهدة ولا مفاوضة، بل تنال بالدم، والدم وحده. ونحن لا جيش لنا ولا عدة، فمن أين نأتى بالدم؟ أبالشجاعة وحدها؟

أفديكِ يازينب! اهدِنى بنور وجهكِ المشرق، وحبك إياى، وإخلاصكِ لى سُبل الحرية!

فقالت حييت أيها الأمير! هيِّئْ جيشك، وحالفْ سابورَ ذا الأكتاف ملك الفرس، ولأسِرْ معك نحارب الروم ولا نرجع إلا ظافرين أو مقتولين. فلَلْموتُ فى سبيل الحرية خير مايتصف به العربى!!

عاد أمير تدمر بعد أيام وقال لزينب: لقد سار ملك الروم بجيش جرار على سابور ملك الفرس، وخفت أن يظفر به، فصالحته من بعد ما اتفقت مع سابور عليه. إلا أن الفرس هزموا جمع الروم، وأسروا مليكهم، فأشفقت كثيراً أن يسير سابور الينا يطلب الوِتر، وما أحسبه إلا قاضياً علينا القضاء الأخير!

ولقد أرسلت اليه رسول الاعتذار، وكتاب الوفاء، وإعلان السلام، وهدية المحبة والاخلاص، فعتا اللئيم عُتواً كبيراً، فأهان الرسول، ومزق الكتاب، ورفض السلام، ورمى بالهدية، وتهددنى أمام الوفد الذى أرسلته اليه، ثم طرده من مجلسه، وأخشى أن يحقق وعيده! فهبت زينب تقول: الساعة يلتئم المجلس الحربى، والساعة يُعلن الحرب على العِلج، والعِداء على لئيم العجم...

وفى تلك الساعة التأم المجلس الحربى التدمُرىُّ، وبدا من القادة أنهم يترددون فى اعلان الحرب، لأنهم يعلمون أن سابور ملك عظيم، تتصدع له الجبال خشية. وانهم لفى ترددهم اذا زينب تبدو على المنبر متلثمة، ثم تخطب خطابا بليغاً، تحرك به العواطف، وتلهب القلوب، وتهيج النفوس، وتهتف قائلة: العربى لا يرضى بالذل والهوان، وانما يرضى بهما الفرس والرومان، فهو للعز يموت، وهما للذل يحييان.

وبعد أيام تكون الجيوش العربية فى طريقها الى الفرس، يتقدمها أمير تدمر (أذينة) وأميرة تدمر (زينب) الزبّاء.

***

تلاقى الجمعان، وكانت جولتان، ثم انهزم الفرس، وسبى أذينة من قصور سابور الحور والولدان، وأسر الأحرار والعبدان. وأُتى بسابور ترهق نفسه ذلة، ووجهه قترة، فاعتذر واسترحم وذل واستكان، ودفع الجزية عن يدٍ صاغراً، وأضحت تدمر جنة البادية بما نُقل اليها من بلاد فارس.

امتلأت نفس أذينة بنشوة الانتصار ، فعلم أن بعض الروم عصوا ملكهم وثاروا عليه ، فسار اليهم ورد عصيانهم اياه طاعة ، وثورتهم عليه استكانة ، وعاد مع زينب الى قاعدته بين هتاف ودعاء ، وما انقضت أيام حتى أتى وفد ملك الروم (جاليانُوس) برأسه الأمير (سولقا) ، ومثلَ بين يدى الملك العربىّ والملكة وشكرهما باسم الملك والامبراطورية الرومانية ، وقدَّمَ اليهما ولاءها وصداقتها . انفتحت أمام أذينة مدارجُ الآمال ، وأمل السيادة التامة ، والحكم المطلق ، فكتب الى جاليان يسأله إياها وأشياء أخرى تضر بملكه ، فحنق ملك الروم وغضب وأرسل قائده (أورل) بجيش ليحرق تدمرَ ويخربها ، ويزيل هذه العقبة الكأداء من طريق مطامعه فى الشرق . فانتهز الفرصة سابورُ فزحف بجيشه الى حاضرة البادية يريد الانتقام ، وكان فى حمص ابن أخٍ لاذينة يلقب بالمعنّى ، وكان يحسد عمه ، ويريد سريرَه ، فلما رأى تألب الأمّتينِ عليه قال حان حيْنه . اقتله وألبس تاجه ، وأرث عرشه .

فأما سابور فهزمته زينب بشجاعتها وبسالتها . وأما الروم فلم يبدأوا الحرب بعد . وأما المعنى فاستأذن أذينة ، ودخل عليه بوفد من أتباعه وأنصاره ، فلما اشتد الهجير ، وهدأ القصر ، اغتاله وأعلن نفسه ملكاً على تدمر .

هاجت زينب هياجاً شديداً ، وهتفت بقوادها المخلصين إلى الانتقام ، وأهابت بشعبها إلى الثورة ، وسارت بالجيوش إلى حمص ، ثم حاربت المعني حروباً كثيرة ، وصاولته بنفسها ، وأخيراً أسرته ، وحكمت عليه وعلى من ساعده ولاذ به بالصلب والفصد ، وقالت هذا أقل ما يعاقب به خائن الوطن ، وهكذا استأثرت بسرير تدمر وحدها ، وما أجدر زينب بسرير تدمر ، وما أليق زينب لأعظم من مثله .

***

كانت مىّ جميلة رائعة الجمال ، حسناء بارعة الحسن ، وكانت مىّ وفية كريمة شجاعة صبوراً ، وكيف لا تكون كذلك وهى الابنة البكر لزينب ملكة العرب ؟

وكان سولقا رئيس الوفد أميراً جميلاً فتاناً كريماً ، اعتاقته مىّ اعتلاقاً شديداً ، وشغفت به كثيراً ، ولم يكن ما يضمر لها من الحب بأقل مما تضمر له ، ولطالما اجتمعا وتشاكيا الهوى والجوى . إلا أن سولقا فارقها إلى روما ليفى عهد الرسالة ، ومىّ تعذبت لفراقه كثيراً ؛ وحنت اليه حنيناً ، وبكت حتى كادت تتلف . وعلمت أمها بأمرها فعذرتها فى نفسها ، لأنها تعرف الحب ودلائله وأفعاله ، وجنونه وفنونه . إلا أن الذى آلمها أن الروم أعداؤها وسيحاربونها ، وما سولقا إلا رجل من رجالهم ، بل قائد من قوادهم ، فاذا خان وطنه فى سبيل حبه استصغرته ولم ترض أن تصهر إليه ، وإن لم يخن فابنتها مائتة غراماً مافى ذلك شك .

ولقد أقبلت عليها ذات يوم فقالت لها : أى مىّ ! أى ابنتى العزيزة ! لقد وكلت إليك ملك تدمر إلى حين ، لما أعهد من حزمك ودرايتك ، وأما أنا فذاهبة لأحارب الروم وأموت ، أو أملك مابين المشرق والمغرب . فتركتها مىّ راضية مسرورة . إلا أنها بكت لفراق أمها كثيراً ، وتجلدت لفراق سولقا وتصبرت فما ازدادت إلا حزناً ولوعة .

انقضى شهر ، ثم أتى البشير يعلن انتصار مليكته على الروم ، وأنها أسرت كثيراً من قادة الجيش وضبّاطه ، فأمرت مىّ بسوق الأسرى الى تدمر ، وفى تدمر أطلت عليهم من الطاق ، فرأت بينهم الأمير سولقا ، ففرحت كثيراً واندفعت اليهم ، وحيتهم ، ودعتهم الى قصرها ، وأكرمتهم كثيراً ، لأن سولقا بينهم ، لا لأنهم قادة ، ولا لأنهم من الروم . وهؤلاء أعجبوا بها وبحنكتها وأخلاقها كثيراً ، وأول من أعجب بها سولقا . وبعد حينٍ أقبلت زينب فارسةً كمياً ، فزغردت النساء ، وهزجت الأطفال ، وغردت طيور الأمانى . وما انتهت الى قصرها حتى سرّحت الأسرى ، فأعظم الناس كرمَ خلقها ، وهتف العرب والروم وكثير من الفُرس : مرحى زينب الزباء ! مرحى ملكة العرب !

***

لم تقنع زينب باستقلالها التام ، بل أرسلت جيشها فغزا ساحل البحر الأبيض الأسيوى كله ، وأعدت جيشاً آخر لغزو النيل ، وفتح مصر ، فجعلت تدمر مُلكية عظيمة يخشى بأسها القياصرةُ والأكاسرةُ . وملك الفرس الجديد « بهزاد » عقد معها معاهدة ليجعل منها ملاذاً وحمىً ، وخطب مياً من زينب ،

فأقبلت هذه على ابنتها ، وقالت بشراك يخطبك بهزاد ملك الفرس ، فاعترفت لها مىّ بحبها سولقا وغرامها به . ولكن زينب تريد أن تزوجها بهزاد لتأمن شره ، فقد يكون له شر . فدعت سولقا اليها وقالت . أهكذا أيها الأمير تسىء الى من أحسن اليك ؟ قال ما كان لى ذلك أيتها المليكة المعظمة ! قالت نمى الى أنك جاسوس لقائدك « أورل » . قال اسمحى لى أيتها المليكة أن أقول لك ، إن مثلى أرفع من أن يكون جاسوساً . انى لا أخفى أنى صديق «أورل» ، وصديق مَلِكى ، وصديق الروم كلهم ، كما أنى أعترف أنى صديق مخلص اليك ، والى ابنتك . فوجمت زينب وقالت أيها الأمير ! لقد وجدتك قائداً شجاعاً ، ووطنياً مخلصاً ، وصديقاً لى أميناً . وسأجعلك القائد الثانى للجيش الذى سأسيّره الى مصر ، فحارِبْ وعُدْ الى ظافراً منتصراً . فقال سأكون إياه ، وكان إياه .

إلا أن مياً خافت أن يُقتل فى هذه الحرب . وعلمت أن أمها لم ترسله إلا لتنجو منه .

وبعد شهور أقبل فارسٌ يقول . إن الجيش العربى قد انتصر ، وعاد الى المعسكر غانماً ، غير أن أمراً أحزن الجيش كله ، هو أن الأمير سولقا الذى ناضل كثيراً ، وكان سبب النصر والفوز الأكبر ، اختفى بغتة .

ما وصل الخبر الى مىّ حتى صاحت قائلة : آه إنها حيلة مدبرة ! إن سولقا قد قُتِلَ . ثم انزوت فى حجرتها ، وأنشأت تبكى وتنتحب . ولبثت على حالها أياماً ، لا تأكل ولا تتكلم ، حتى وهنت ووقعت فى سرير المرض . فعالجها الطبيب فشفيت ، إلا أن وجهها الناضر الزاهى أضحى شاحباً حائلاً ، لا رونق فيه ولا حياة .

أقبل رسولٌ بعد ذلك يقول إن الأمير سولقا حىٌّ ، وهو يحارب المصريين بعيداً عن المعسكر . فطار لب مىّ فرحاً ، وكادت تُهوى على يدىِ الرسول تلثمهما شكراً ، لكنها خلعت عليه خلعة ، ووصلته بالمال والحلى .

عاد القائد العربى «زبدا» بعد أيام يرافقه الأمير سولقا فاستأذنا على زينب ، ومَثَلا بين يديها فقال « زبدا » أيتها المليكة المعظمة ، إن الأمير سولقا بطل يجب أن يُفتخر بمثله ، فهو هو الذى هزم المصريين ، وجعل العلم العربى يخفق على ربوع النيل .

***

ما زال الروم يسألون زينب أن تعترف بسلطانهم عليها ، وأن تدفع لهم جزية الانتداب ، ومازالت زينب على شممها وإبائها ، لا تعترف لهم بشىء . وأرسل اليها أورل ذات مرة يقول ، تعترفين بسلطاننا عليك ، وتدفعين الجزية ، أو أحاربك وأخلعك ، وأصلبك وأسبى ابنتك ، وأُتوّجُ على سريرك زيدَ بنَ المعنّى . فثارت زينب ثورتها ، وغضبت غضبتها ، وجمعت المجلس . وقالت الى الحرب أيها الأبطال ، الى الانتقام أيها الرجال ! إن تدمر العربية لا تستكين أبداً لتطاول الروم أو البربر . . .

وهكذا اضطرمت الحرب ، ورحل الروم المقيمون فى تدمر الى وطنهم ، بينهم الأمير سولقا . ولاقت زينب جيش الروم ورأت أن زيد بن المعنى تحت لوائهم ، فقالت الويل له من عاقبة كعاقبةِ أبيه ، وحاربت وناضلت كثيراً ، وشجعت القادة ، وتقدمتهم الى الموت .

غلب الرومُ ، وانهزم جمعهم ، فتبعتهم زينب تريد التنكيل بهم والقضاء عليهم ، فما أحست إلا وفرسان جيشها فى مستنقعات (الصوّيق) يغالبون الموت والموت يغالبهم ، وما أحست إلا والروم قد طوّق المشاة من جيشها ، واعمل فيهم السيوف ، فجزعت كثيراً ، وخطبت فى سائر جنودها الخطب الحماسية ، فما أفادت ، وما زالت عددها تنفد ، وعددها يقل حتى أوشكت على الهلاك فاستنجدت ملك الفرس قال مىّ ابنتك وأعنيك . فما رأت بدأً من التراجع فتراجعت ودخلت تدمرَ محزونة مكتئبة ، وأغلقت الأسوار .

***

بينما كانت زينب تحارب الروم جوار (انطاكية) كانت مىّ ابنتها ترسل اليها العدد ، وتدير أمر المملكة ، وأقبل عليها ذات يوم رسول وقال لقد وجدنا الأمير سولقا يا سيدتى قتيلاً فى سهول حماه . فقالت فى نفسها اذن اهلك معه . وأمرت خادماً لها أن يأتيها بثعبان تتعلم امساكه . ففعل . نخلت بالثعبان وقربت الناب القاتل من الثدى الزاهى وهتفت قائلة : نفسى فداء الأمير سولقا ، وما كاد الناب يغرز فى الثدى حتى هتفت وقالت : لا لا ،

نفسى فداء الوطن . ورمت الثعبان من النافذة . وإنها لتفعل إذا رسول بالباب يقول سيدتى هذه خوذة الأمير سولفا يرسلها اليك وهو جريح نعالجه وسيشفى عن قريب ، فقالت : وافرحتاه ! ووصلت الرسول بما يستحقه .

* * *

حاصر أورل بجيشه تدمر ، وطال الحصار فمُلّ ، ونفدت مؤن المدينة ، وتضاغى الناس جوعا ، فجمعت زينب المجلس الحربى ، فلقيها القادة باكين ، فقالت لم البكاء أيها الأبطال ؟ إما الموت ، وإما الحياة !

وصعدت ابنتها مىّ المنبرَ وقالت إن حفيدة السميْدعِ ميّاً لتضحى بنفسها فداء الوطن .

أخرج بكم أيها الأبطال ، من السرداب الخفى الذى يصل تدمر بنهر الفرات . ثم أسير الى ملك الفرس وأعلن له قبول خطبته إياى ، ثم نرجع بجيش وعدةٍ من عنده ، فنكرُّ على الروم ، ونمزقهم شر ممزق !

فأكبرت زينب إخلاص ابنتها ، وتفاديها وتضحية حبها فى سبيل الواجب ، وأكبر القوادُ اخلاص أميرتهم وشجاعتها

فى تلك الساعة قال زيد بن المعنى لأورلِ قائدِ الروم : إن بين الفرات يا سيدى وبين المدينة سرداباً خفياً ، ترسل منه زينب رسولها إلى بهزاد ، ليمدها بالرجال والزاد ، قال اذن الليلة تمسكون الرسول ، وتفتحون الأبواب ، وتدخلون المدينة ، وتدكون القصر دكاً دكاً وتثلون العرش ثلاً ثلاً !

وما غشى الليل واختلط ، حتى كانت مىّ متقلدة حمائل سيفها تتقدم القواد فى السرداب ، وتشجعهم . وما أطلت حتى كان زيد يطوقها بجنده ، فأهابت به قائلة الويل لك أيها الخائن ، وأقامت تحارب وتناضل ما تقدر أن تفعل ، وودّت لو تُقتل ولا تؤسر ، إلا أن أورل أقبل بجيشه فأسرها ، وفتح المدينة ، وأسر زينب ، ولكن لم يثل العرش ثلا ، وإنما توّج على سرير تدمر زيداً الخائن .

سيقت زينب وابنتها والقواد الى منزل الذل والهوان ، وحكم أورل على زينب بالصلب ، وفى الساعة التى كادوا ينفذون بها الحكم ، كان قائد جميل رومانى يدفع الجموع بمنكبيه ، ويهب بالجلاّد قائلاً : رويدك أيها العِلج . ويتقدم الى أورل ، ويركع عند قدميه ، ويقول : أنا صديقك سولفا أُناشدك الصداقةَ التى بيننا أن تعفو عن زينب ! إنها بطلة يا سيدى ! إنها لم تحاربك إلا دفاعاً عن حريتها واستقلالها وكرامتها ، فلا تلطخ جبين الدولة الرومانية الناصع بقتل البطلات اللائى يضحين أنفسهن فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ! ! فصرخت زينب قائلة : لا ، لا ، الموت أعذب لى من الحياة بعد الآن ! إن العربية لا تعرف الحياة إلا بالعز ، ولن تعرفها إلا به أبداً ! !

عفا أورل عن زينب وابنتها وأمر بنقلهما معظّمتين الى قصره . وتقدم الأمير سولفا يوماً من مىّ يخطبها فقالت : أنا لا أخفى عليك أيها الأمير أنى أحبك كثيراً ، ولكن لا أقدر أن ألبى طلبك إلا حين أُبعث ؛ وأنا اليوم ميتة ! إن العربيات اللائى دوخن الفرس والروم ، وخفقت رايات نصرهن فى لبنان وربوع النيل ، لا يرضين التزوج بالروم ، ولا يعرفن الحياة والحب إلا مع العز والكرامة والحرية (١) . . .

حماه

مهدى النجم الطرابلسى

---

(١) لم يعرف التاريخ قط امرأة تشبه زينب بعفتها ، وفضلها ، وكرمها ، وشجاعتها ، وحزمها ، وإدارتها ، وصدقها ، ووفائها . ويمكن ن نقول إن زينب المثل الأعلى للمرأة الكاملة — بالنسبة للعصر الذى وجدت فيه — بل لأعظم من الكاملة . وكمثل الشعار الذى اتخذته زينب لها يجب أن يتخذ سائر نساء العرب شعارهن ! إن زينب فريدة عصرها بل فريدة عصور غيرها . نعم إن هنالك الفتاة الفرنسية جان دارك ، لكنها لايمكن أن تقاس بزينب على حال ، لأنها لم تبلغ ما بلغت . والذى يؤسف له أن الفرنسيين يقيمون لجانداركهم عيداً كل عام . ونحن العرب إذا ذكرنا زينبنا يوماً فانما نذكر أسطورة بالية ، وخرافة قديمة ! ؟



شخصية أبى شادى

فى ديوانه « الينبوع »

بقلم الأديب حسن كامل الصيرفى

يمرّ صدى المطرب أمام جهاز « الراديو » فيطوف فى الأثير بين رياح عاصفة ونسمة هادئة ، ويمتزج فى ضجيج الحياة وجلبتها ويغرق فى صمت البوادى والقفار ، حتى يتلقاه جهاز الاستلام فاذا الصوت ناطق بشخصية صاحبه . . كذلك يمر ذهن الشاعر بمحيط الحياة ، يسمو إلى الأفلاك فلا يسمع منه أهل الأرض إلا همسات ونجوى يستشعرون فيها حناناً وراحة ، ويهبط منها إلى صخب الحياة فيحاول أن يلطف من حدة ذلك الصخب بأنغام قيثارته ، ولكن جمود الحياة يستثيره فيترك القيثارة لحظات تراه فيها صاخباً ثائراً متململاً ، وهو بين سموه عن الحياة وبين اندماجه فيها محتفظ بشخصيته

وهناك شعراء يفقدون شخصياتهم فى جولاتهم الواحد منهم كالمهرج عليه رُقع ليس بين ألوانها وحدة وتناسب . فالاحتفاظ بالشخصية يرجع إلى مؤهلات الشاعر الفنية ، فالأول يطوف ويقف ويحلق ويهبط ، وهو ينظر إلى العالم كما ينظر المصور إلى اللوحة التى يخط عليها بريشته عارفاً حدودها . أما الآخرون فيسيرون فى طريقهم على غير هدى لم يرسموا لأنفسهم غاية .

وبمقدار احتفاظ الشاعر بشخصيته تكون قوته أو ضعفه ، فلننظر إذاً فى ديوان « الينبوع » ولنبحث عن شخصية أبى شادى ، وعن مدى ظهورها أو تلاشيها . ولقد قرأت هذا الديوان فما كانت شخصية ناظمه تنأى عنى أو تنمحى من أمامى قد يفقد الشاعر فى أثناء حلمه الجميل ذاته ولكنه لن يغيب عن قارئه إذا استطاع أن يمزج روحه بآثاره .

فأبو شادى الذى أعرفه فى حياة الناس شعلة فانية يريد أن يجمع العالم فى يده فيحيله قطعة فنية فى أقصر وقت كما تحيل النظرة الفاتنة دنيا العاشق لحظة قصيرة العمر مسرعة الخطى يتعجل اقتناص ما وراءها ، هو نفسه أبو شادى الذى عرفته فى حياة الشعر شعلة فانية يشقيها التسامى ويفنيها الكد .

فلأبى شادى شخصية واحدة تظهر دائماً وإن تنوعت ثيابها وتشكلت ، فهو محب للحياة متصوف فى حبه عالى الروح ، يريد الحياة خالصة سامية ، يريدها قطعة فنية ، فهو يحاول تهذيبها ، أو هو يحاول تلوينها بألوان من السعادة تختلف فتبدو للناس عجباً ، وتجتمع عنده فى قرارة نفسه ، فلا يراها إلا وحدة متماسكة الأطراف متساوقة لاتناقض فيها ، ويراها طريقا الى غايته وسبيلاً الى أداء فكرته ، وإنه ليشعر بحيرته بين كل هذا ، ولكنها حيرة الشاعر أمام ربط معانى قصيدته حتى يلم بها فاذاهى آية تؤلف بين أبياتها وحدة تامة فيقول :

عجبت من قلقى فيما وجدت له ... وفى المعانى لكونى أولأحلامى
أسائل الدهر عنها وهو مضطرب ... مثلى ، وأصحب كالمبهوت أعوامى
وأنتحى عن وجودى شبه منعدم ... فى الصمت ، والصمت آمالى وآلامى
فى حيرة وكأنى عالَمٌ يئست ... منه الحياة فعافت روحه الدامى
أبكى وأضحك فى نفسى فان بها ... من التناقض إبسارى وإعدامى
مابين ضدين قدعاشت وليس لها ... من شاغل غير معنى عيشها السامى
تصدّرت لهموم الناس تسعدهم ... وعوقبت بين أحباب وأخصام

ولقد ظلت غايته ، وهى نشدان المثل الأعلى ، تتبعه كظله حتى أكسبته هذه الشخصية : شخصية الصوفى العالى ؛ فهو أمام الجمال المغرى صوفىّ يحوّل الشهوة الصاخبة فى أعماق جسده فناً يملأ روحه ويغمرها ، ولايرى فى ذلك الجمال إلا روح الوجود وروح الفن كما فى قصيدته « العيون المتكلمة »

ولقد جاهر الكثيرون ممن نقدوا أبا شادى بأن فى قصيدته « الينبوع » التى يقول فيها :

أيها الينبوع كم ساع إليك ... يدعى بغضاً كما أهوى لديك
كل مايرجوه موقوف عليك ... فاذا الانعام منك وإليك !

أنت سحر غامضٌ للعالم أنت ينبوع الرجاء الدائم
أنت موسيقى الخلود الباسم أنت ومض للشريد الهائم!
أيها الينبوع يارمز الأبد ياشعاع الله فى طيف الجسد
كم معانٍ فيك كادت لاتحدّ وعزاءٍ عن حياة تفتقد!

دعوة صريحة إلى الشهوة، وأن ليس فيها نظرة صوفية، ذلك أن فيها تقديساً للجسد، وتقديس الجسد ليس من معانى الصوفية عندهم. فهل يرى هؤلاء أن الشهوة حقيرة للدرجة التى لا تسمح للشاعر بأن يتناولها فى فنه مع أنها الدافع الأول الى خلق مواهب الفنانين، وليست العبقريات إلا شهوة تجمعت فى عدسة عين صوفية فتطهرت واستحالت سمواً. ومن منا ينكر أن هناك مثالين عبدوا تماثيلهم وفتنوا بها بعد أن كانت فتنتهم وقفاً على المثال، وهل عيب عليهم تصويرهم جسد امرأة عارية يحمل معنى من معانى القداسة يراها المثّال ويراها كل من مسته يد الفن وإن خفيت على بعض الناس.

إن الفنان عند ما يتكلم عن الأجساد أو يصفها لا تكون لديه إلا فكرة واحدة هى تقديس الجمال، وهذا هو ما عناه الدكتور أبوشادى فى قصائده عن الجمال والحب، وما عبر عنه بقوله:

عبثى هو الفن الجميل، وروحه روح السموّ وإن يعد ضلالا

***

يعيش أبو شادى فى بيئة ظالمة جاحدة، تحيط به خصومات وأحقاد وأعداء مناوئون، وقصيدته «المهزلة» التى صور فيها هذه البيئة تصويراً بديعاً سكب فيه من شعوره ما يتدفق حاراً، من أقوى الشعر الاجتماعى العاطفى. وفيها يقول:

ويلى من الدهر! يبكينى ويبتسمُ ولا يردعوادى جَوْرِه السقمُ
قد عدّ شر ذنوبى ما يفيض به قلبى الى الناس من حب ويزدحم
ويلى من الدهر! ويلى! مَن أقرّ له هذا العتوّ؟ وهل فى الحب متهمُ
أطلّ دمعى وماء العين مضطرم وهاج وجدى وسخط القلب محتدمُ
أنا الذى فى شكاتى يزأر الشمم وفى بكائى ونارى يهزم الألمُ
سخرت من بيئتى لما برمت بها ونحتُ لكن نواحى كله كرمُ
لست الذى إن تغالى فى محبته فساءه الدهر عمراً ناله الندم

وهو إذ يصور لنا البيئة المصرية — وكم له من صور عنها! منها الحزينة الهادئة والصارخة الملتهبة والمتهكمة اللاذعة! — وينغمس فى مناقشات ومجادلات لا يفقد شخصيته البارزة، تلك الشخصية الصوفية الزاهدة فيقول:

وعشتُ فى وحدتى الموفورَ فى شرفى
أبكى وأضحك والاحداث تلتطمُ

ولقد جمع ديوان «الينبوع» صوراً شتى لصوفية أبى شادى الغالبة عليه منها هذه الأبيات من قصيدة «غليون الشاعر»

أشعلُ الغليون من نا رى وحيداً فى الظلام
ناظراً نحو سماء فى ضرام كضرامى
خبأتها غير لمع فى نجوم كابتسامى
حرقة الدنيا أطلت من ثقوب فى الغمام
كل ما فيها جميل هو قلب فى اضطرام
وكأن الخالق الفنـ ـان يشقى بالتسامى

وهذه الأبيات من قصيدة «وداع الشاطىء فى الاسكندرية» هى لوعة الفنان العازف بين الصخور الصمّاء:

إيه ياقلب تأمل هذه دنيا الصراع
يبدع الفنان لكن هو كالنور المشاع
خاسر مهما تفانى فى وفاء وابتداع

وفى قصيدته «عيش الألوهة» صفحة ٦٣ نزوع قوى الى التغلغل فى أعماق كل ألوان الجمال، ليعيش فى لبه وصميمه عيشة الألوهة، بعيداً عن أذى الحياة فى حلم من أحلام الجنة. ولقد تلعب ريشته وترقص، فترسم لنا أخيلة لتلك السعادة التى يحلم بها فى هدوئه وتصوفه

فأبو شادى ذلك الانسان الدائم الحركة، الموزّع الجهود، المختلف الصور، المتناقض السبل، رجل يحمل فى طياته شخصية واحدة تظهر فى شعره دائماً أتم الظهور، وفى قصيدته «بعد الكفاح» التى يتكلم فيها عن القطن المكدس بعد جنيه، فيعطينا منه فكرة، هى تلك الفكرة التى تشغل باله، والتى تشرق وتغرب فيها شخصيته، فيقول:

هذى بقايا القطن ترقد فى الثرى كجنود حرب بعد طول كفاحِ
صرعى مجندلة، ولكن بعدما ضحّت بأجمل نورها الوضاحِ
حتى النبات يرى الضحية واجباً ومُنًى فليس يضنّ بالأرواح

هذه الشخصية التى تجلت لى فى مطالعة «الينبوع» شخصية أبى شادى التى تلابس شعره هى بنفسها التى طالعتنى وتجلت لى يوم قرأت دواوينه السابقة، وهى هى بنفسها التى يعيش بها بين الناس، فليس من الحق أن ننكر على شعرائنا ثبات شخصياتهم فى شعرهم إلا اذا دققنا واندمجنا فى روح الشاعر؟

حسن كامل الصيرفى